حلقات الحقيقة

الواقع والحقيقة...
ولمن يهمه الأمر

مازن الحجَّار

مؤسِّس منظمة 'الإئتلاف الإنساني الدولي'

والمنسِّق العام للجان الإصلاح والإرشاد السياسي والإجتماعي 'آسا'

من الصعب، بل من الخطأ، ادِّعاء معرفة كل الحقيقة؛ أو ادِّعاء الإحاطة بكل ما للحقيقة من أوجه متعددة ومعايير نسبية ومتفاوتة؛ وما أحاول توضيحه في حلقات هذه الرسالة، فلأختصر به مجموع ما أدركته من حقيقة موضوع كل حلقة من تلك الحلقات المترابطة، ومن أجل الوصول إلى ما أهدف إليه، أو أتمنى النجاح في عرضه من "حقيقة متكاملة"، نعمل أو نتعاون على أساسها في تحصين "الساحات الداخلية"، ولما فيه مصلحة الجميع.

إن في كل حلقة حقيقة يستفاد منها، ضمن مجالها، وعلى القارئ وصل الحلقات ببعضها، أو الربط بين حقائق حلقات هذا الكتاب، كي يدرك ما نبتغيه من تلك 'الحقيقة المتكاملة'؛ وإن ما أكتبه "بكل دقة"، إنما هو موجه لأصحاب 'الشأن' والمسؤولية بالدرجة الأولى، ولكي يدرك هؤلاء حقيقة ما يجري من حولهم، و"من تحتهم"، وتأسيسا لما نحتاجه اليوم من 'رؤية' واضحة ومشتركة، منعا للإختراق، وحفاظا على أمن الأوطان والمواطنين.

محتويات الكتاب

- تقديم

- تجربة مع الزمن
- السياسة الدولية المعاصرة: بين ’الواقعية‘ والأمر الواقع
- لعبة المحاور: محور ’الشر والتطرّف‘، ومحور ’الخير والإعتدال‘
- العالم العربي: بين الأنظمة الرسمية و’القوى الشعبية‘
- الأمة الإسلامية: بين السنة والشيعة
- مبادرة ’تجسير الهوة‘
- الحقيقة: بين المرتهَنين لمصالحهم الخاصة، وبين المخلِصين لمصلحة الوطن والمواطنين

- كلمة أخيرة، ونصيحة خالصة لمن يهمه الأمر

تقديم

ليس كل ما يدور من وراء كواليس عالم السياسة يقال، والكثير مما يقال لا علاقة له بالحقيقة... للأسف، هذه هي حقيقة ما آلت إليه السياسة الحاضرة. فبدلا من أن تكون تيسيرا وتسييرا نزيها لشؤون الناس وتدبيرا حكيما لمؤسسات الدولة، فلقد غدت اليوم كذبا على الناس واستغلالا رخيصا لمشاعر ومصالح العامة، وصراعا حيوانيا من أجل البقاء و"تكالبا" شرسا على السلطة. إنني أتكلم هنا وبكل واقعية، لا علاقة في ما أقوله هذا بأيٍّ مما قد يتصوّره البعض من آراء مثالية أو "خيالية"؛ لا أطلب من أحد أن يكون قِدّيسا، ولا أظن سيرة أحد منا خالية من الشوائب أو المصائب. إنما ما أنتظره ألا يعترض متسلط على قول "بعض" الحقيقة، والتسليم "بشيء" من العدالة وقدر معقول من المنطق؛ وأقلّ ما يمكن توقعه ممن يحملون أمانة مقاومة الظلم ألاّ يروا في ما أقوم به وأقوله على سياساتهم وعلى أمنهم خطرا!

عندما "يخافني" بعض زملائي من الأكاديميين الغربيين؛ فلخطورة ما أثيره وبمنتهى الدقة والأمانة من قضايا حسّاسة، تتعلق بتاريخ وأسلوب ومعالم طريق الهيمنة التي اتبعَتها "العقلية" والمؤسسات الغربية طيلة القرون الثلاث الماضية، والتي أدت في النهاية إلى سيطرة "البعض" من هذه المؤسسات المتسلطة على دفة حركة التطوّر الإجتماعي العالمي. وإن لم يكن ذلك واضحا في عقول الكثيرين، فهذا لا يخفى على بعض منظِّري تلك المؤسسات الإحتكارية الحالية، وبالتالي، فإن مراكز ومواقع ومصالح هؤلاء الزملاء ستكون بخطر. وعندما يتجنبني أصحاب السلطة و"السطوة"، العرب وغير العرب، فلما يعرّضهم اليه ويطالبهم به كلامي من "حرج" عند أسياد البعض، ومن تخلٍّ عن "شيء" من الإمتيازات أو "المكتسبات"، وذلك أمر واضح ومقبول... ولكن، عندما يتجاهلني ويتهرب مما أدعوهم إليه بعض القيادات والجهات المؤتمَنة ممن يُحسبون من وعلى الشرفاء الأتقياء، فذلك أمر مستهجَن ومحبِط وغير معقول!

نعم لقد وعدت ألاّ يرى وجهي ولا إسمي وألاّ يسمع صوتي في أي وسيلة إعلام مرئية أو مقروءة أو مسموعة أحد. كنت أعلم أن في ذلك تطمين للظالم وتشجيع للضال على الإستمرار في غيّه، ولكنني أردت أن أحُثَّه على المصارحة، ولأن الساحة لا تحتمل الآن المزيد من الإنقسامات أو "نبش" الحسابات، ولأنني لم أكن أريد أن أنتقد أو أحرج أحدا. إنني أقدِّر حقيقة الإمتحان واستحالة تحقيق العدالة على هذه الأرض. ولكن ما يؤلمني وما لم أستطع حتى الآن هضمه، أن أجد نفسي في قفص الإتهام هديّة للتضحيات وللترَفع عن زخرف الحياة، إذ أن 'الساكت عن الحق شيطان أخرس'. أن أجد الصمت وستر العورات هديّة مشكورة وغير مشكورة، لمن لا يعرف قدرا للحشمة ولا يَقدِر على شكر النعمة، ولمن لا يفهم معنى للَّياقة أو اللباقة ولا يعطي شأنا للأخوة أو الصداقة... عندها يتغير الأمر، وتختلف كل الحسابات.

عندما أتكلم عن التطرّف وعن فكر التسلط والإحتكار؛ والكلام في البداية كان عن تلك "البؤر الإستبدادية" العالمية والمسيطرة أولا على معظم المؤسسات المالية والإعلامية الغربية؛ لم أكن أقصد يوما ما يُراد أن تُصرَف به الأنظار من حالات شاذة "مزروعة" في منطقتنا، دخيلة على قيمنا وثقافتنا، مهيمنة بإسمنا وبإرادتنا على عقولنا وتفكيرنا، قابضة على حياتنا وثرواتنا وعلى 'لقمة عيشنا'... ولقد حاولنا ونحاول، والساحة لا تخلو من بعض القيادات الصادقة. ولكن المصيبة في صعوبة التواصل مع من لا يملك من أمره ولا يَقدِر على التحكم بـ "نزواته" ممن يرتضي لنفسه أن يكون عونا لعدو الإنسانية على أخيه... حفنة من تجار الموت ومن المرتزقة، ومن "الجائعين" على أبواب السلطة، بهم يتحدانا "المتسلط الدولي" الآن، وبأفعالهم المشينة والمهينة تحتقرنا اليوم كل شعوب العالم المتقدمة و"المتخلفة"! هؤلاء إهانة لكرامتنا، عار على جبين أمتنا، صفعة على وجه نبي الصدق والأمانة والإخلاص نبي الإسلام محمد.

عندما أتكلم عن "الخلل"، فالمسألة لا تنحصر في ما تواجهه "الأمة" من أزمات طارئة، ولا في ما يعاني منه "القوم" أو الجماعة أو أي طائفة بعينها، ولكن الكلام يتعلق بما يتهدّد الإنسان اليوم وكل المجتمع البشري من مخاطر قاتلة وأمراض مستعصية تراكمت أسبابها ومخلفاتها وعلى مدى قرون مضت، خلت حركة تطور النظم الإجتماعية فيها من أي نظام صحيح وصريح للمحاسبة والمساءلة، أو التحقق من صحّة وسلامة مسار ما يُسمَّى بـ ’التقدم الحضاري‘.

يقلقني ما نشهده اليوم من إجرام وإرهاب منظم؛ وأن تجد أكثر من خُمس سكان الأرض فجأة في قفص الإتهام أخطر. أن تُشحَن الشعوب على بعضها في حملات "رسمية" ومنظمة من "التحريض الأممي"، وبتوجيه من رأس السلطة ومن قبل "مخلوقات غير بشرية" مسيطرة عنوة على القرار الدولي، مربِك للعقل ولن يقدر على تحمل تبعاته أحد؛ ناهيك عما يُروَّج له ويُشَرَّع من مبادئ حيوانية و’قوانين طوارئ‘ لسلب الحرِّيات وتعطيل المنطق ولغة العقل السليم.

إن ما تتعرَّض له الأرض والسماء التي يعيش في كنفها الإنسان، وما يعيشه كل ’نظام حي‘ نعرفه في هذا الكون، من اعتداءات مدمِّرة ومستمرّة، ومن قبل فئة قليلة محتكِرة مستهترة، لن تقتصر عواقبه على الدول والشعوب الفقيرة؛ ولن تنفع محاولات الإلتفاف على الحقائق ولا الترقيع، ولن يُسكِت "التهديد الرسمي" المدافعين عن ’النظم الطبيعية‘. وما ما نراه من ظواهر وتغيّرات بيئية ومناخية غير معهودة إلاّ مقدِّمة "الغضب" قادم سيشملنا جميعا ومن دون تمييز.

يظن البعض أن بإمكانه مواجهة الحدث عن طريق تغيير طبيعة الإنسان البشري والتلاعب بمكوناته الخَلقية والخُلقية، وهم يصرفون الآن الأموال الطائلة من أجل "سلخ" الناس؛ خاصة الأجيال الصاعدة؛ عن أصلها وتاريخها ومبادئها، ومن أجل إلغاء منطق القيم من تفكيرها وحساباتها و"مسخ الإحساس" في مسلكها ومشاعرها، متجاهلين حقيقة إحتمال أن ينقلب "الهمج" غدا على صانعيهم، وأن تتحول "الأعداد" المتعطشة إلى الإنتقام إلى جموع "حيوانية" ثائرة جائعة.

إن ما نشهده من تقليد أعمى لأسوأ منتجات ما يسمى بـ "العالم الحر" من ضرب للقيم العائلية والروابط الإجتماعية، ومن إيقاظ وتحريض للقوى الحيوانية عند الإنسان على حساب قواه العقلانية والروحانية، سيقضي على آخر ما يميزنا ويميز مجتمعاتنا من حشمة وتراحم (إحترام الصغير للكبير، ورحمة القوي على الضعيف) ولن يكون في مصلحتنا؛ فهذا ’الجيل الجديد‘ الذي يتربى على نكران خالقه والتمرّد على والده، لن يقدر على إصلاحه غدا أو ضبط أفعاله أحد.

إن "الإرهاب" خطر يتهدّد الآن كل إنسان. ولكن ما تتسبَّبه بعض القوى الإحتكارية الأنانية المستهترة بكل الأعراف من تلوُّث بيئي و’احتباس حراري‘ أخطر من هذا الإرهاب المنظم والمفبرك والمفتعل وبكثير... وما هو أنكى وأعظم، أن ترى الناس والجماعات والأمم قد وقعت في قبضة "عُبّاد المادة" من تجّار فُجّار وأثرياء كانزين للأموال الطائلة... أن يتسلط هؤلاء ومن دون منازع ولا محاسب على مقدّرات الدولة وعلى لقمة عيش المواطنين... أن يقضي هؤلاء على مبدأ العدالة في توزيع الثروة وعلى روح ’الفرصة المفتوحة‘ والمنافسة العادلة ليتحكموا ومن دون أي وازع بكل المؤسسات التجارية والصناعية وبحياة ومصير وحقوق العمال والموظفين... أن يترك هؤلاء ليحتكروا الحركة وكل مصادر الحياة وأسباب البقاء، وليفرضوا بذلك شروطهم على كل القوانين الدولية وفوق كل الشرائع والدساتير... أن يسيطر هؤلاء على الكلمة الحرة وجميع وسائل الإعلام وأدوات توجيه الرأي العام ليسوقوا بها الشعوب كالأنعام... أن يصل هؤلاء ويصل معهم ’ملوك المال‘ و"الفنانون" و’نجوم السينما‘ إلى أعلى مناصب السلطة ومواقع الرئاسة، وفي ظل إنتخابات "ديمُقراطية"! وبإرادة شعبية!!... إن ذلك لدليل قاطع على أن ’هرمجدّون‘ قادمة حاصلة لا محال.

الحلقة الأولى
تجربة مع الزمن[1]

لست أدري إن كان ما زال هناك أناس تريد معرفة الحقيقة... لست أدري إن كان ما زال هناك فائدة من معرفة هذه الحقيقة، وقد طغت على عالمنا روح اللامبالاة والأنا والنفعيَّة والمصلحة الشخصية، وفي نفوس الناس؛ وحفنة ممن يدعون الإيمان ومخافة الرحمان؛ كل ألوان النفاق والذل والإرتهان...

عندما تتعاون كل قوى الظلم والفساد على إبعاد أصحاب الحق والحقيقة... عندما يتهرّب منك جارك، ويتجاهلك زميلك ليزيد من معاناتك، فلا يسمع نداءك ولا يردّ على رسائلك؛ عندما يتهمك "الكذاب" من وراء ظهرك، وفي مجالس "إخوان" لك، بما يراهن فيه على سكوتك وخُلُقك وزهدك وترفعك!...

هوذا زمن المحنة الذي 'يصبح فيه الحليم حيرانا'، و'القابض على دينه كالقابض على الجمر'. الكذب والنفاق فيه سياسة، والمكر والإحتيال فيه دهاء، والإستغلال فيه "شطارة" وامتياز "بجدارة"، ولتدفع "العامة" وكل الناس "فاتورة" بيع النفوس وثمن غرس الرؤوس في الرمال... ولكن إلى حين.

أربعة عشر سنة أمضيتها، ومنذ أن تفتحت عيناي على الحياة، في مدرسة 'الأخوة المريميين'؛ ما زلت أحفظ الصلوات المسيحيّة عن ظهر قلب؛ قبل أن أتعرّف على الإسلام نهجاً متكاملاً ومكمِّلاً لما كان قد انغرس في قلبي من رسالة المحبة والتسامح. لقد ترَبَّيت على احترام وتقدير الآخرين، وبغض النظر عن خصوصياتهم الروحية أو الفكرية، ما كان لكلمة "الكراهية" يوما مكانا في قلبي. وعندما شاركت وكنت من أول المدافعين عن وطني، ما كان ذلك إلاّ لما رأيته من ظلم واستغلال، وتآمر خبيث من قبل قوى الإحتلال على 'مثال التعايش' العقائدي والطائفي الذي كان يمتاز به بلدي؛ عندما دفعنا ثمن قبولنا أن نكون ألعوبة في يد محتلٍ يجيد اللعب على التناقضات وعلى مرأى ومسمع كل القيادات "الوطنية" السياسية والعسكرية، يمدُّ الخصوم بآلة الموت ويرسم لهم الخطوط الحمراء، ليرفع اليوم فئة من "المغفـَّلين" وحسب ما تقتضيه مصلحته ليقدِّم عليهم آخرين أكثر "إنبطاحا" غدا!

---

[1] لم أكن لأكتب يوما عن نفسي، إو "أسَوِّق" لما أساهم في تثبيت جذوره من فكر وتحركات من الأولى أن تبقى بعيدة عن سوق المزايدات أو الإستقطاب. ما كنت لأحيد عما رسمته لي من مسلك شائك و"مكلِف" أتَّبعه في هذه "الدنيا"، وما كانت لتستفزَّني انتقادات الأصدقاء وتجاوزات السفهاء، لو كان بالإمكان معالجة ما يمنع الآن الحديث عن الحقيقة، إذ أن ما وصلنا إليه من سيطرة لمبدأ "إذا بِتِحْكِي بحْكِي" بين أهل السياسة وأصحاب القيادة صار يستلزم وجود من يمكن لهم وضع كل أوراقهم على الطاولة ليقولوا لهؤلاء أن هذا ما عندنا، فليتجرأ أحدكم أن يعلن ما يخفيه! إنني أقولها لا للتحدي، ما كنت أتمنى أن تصل الأمور إلى هذا المستوى ولكنني اضطررت، كسراً لتلك القاعدة التي تقف الآن حائلا أمام قول الحقيقة، وكرد علني ومفتوح على المشككين وأصحاب الغيبة والنميمة من وراء الكواليس. إن ما أريده وما زلت أتمناه وأنتظره من وراء نشر هذه "المكاشفة"، أن أترك للتاريخ، وفي الحاضر والمستقبل لكل الناس ولكل من يهمه الأمر، حتى "يستحي" من ما زال فيه حياء، ولتسقط الأقنعة عن وجوه كل من لا يريد حلا لما تعيشه الشعوب العربية والإسلامية من أسا ومعاناة، ويقف عائقا أمام تقدم أمتنا في أي جانب من جوانب الحياة.

كنت واحدا من آلاف "المتطوعين" للدفاع عن الحقِّ وعن هويّة الأمة وعن العِرض والأرض. ولقد جُهِّزَت لنا "صناديق" بشعارات برّاقة وعناوين مختلفة، على رأس كل صندوق متقدِّمٌ "أسيرٌ"، أو "قائد" بسيط ومدفوع من قبل "البسطاء"، أو "تاجر" منافق. سنوات طويلة من الخراب والدمار، وصناديق كرتونية تتحَطَّمُ بمن فيها من متطوعين مظلومين، وبيوت تتساقط على رؤوس الأبرياء؛ ولقد نِلتُ نصيبي من القتل، ثلاثة وعشرون سنة من العذاب، وآلام نفسية وجسدية مزمنة لا تفارقني؛ ما ظلمتُ وما اعتدَيتُ وما نافقتُ وما "تاجرت"، ولذلك لم أكن وما كنت لأكون يوما من 'الواصلين'. وعندما اضطررت لمغادرة تلك الأرض الطاهرة الطيبة في أواخر الثمانينيات، إنما كان ذلك مؤقتا بهدف العلاج الطبِّي، على أثر "إصابات قاتلة" تلقيتها أثناء قيامي بواجبي في الدفاع عن أرض بلدي. لم أكن يومها 'لاجئا سياسيا أو إجتماعيا'، ولم يكن ذلك من أجل 'تحسين وضعي العلمي أو المادي'، إنما من أجل البقاء والإبقاء على ما أشعر به من إلتزام بالحقيقة، ومن أجله يبقيني الله على قيد الحياة.

لم أكن من "المتطرفين" ولم أكن من "الفقراء" أو العاطلين عن العمل – كما يظن الكثيرون من المفكرين في بلاد الغرب – عندما شاركت في أعمال المقاومة في لبنان؛ وما كنت "خفيف العقل" ولم أكن من الفاشلين على مقاعد الدراسة – كما يحلو للكثيرين من علمانيي العرب وصف من ينتمي إلى أي من التيارات أو المدارس الدينية – عندما "اهتديت" وآمنت والتحقت في صفوف المسلمين. ولكنني كنت شريفا نزيها أمينا، وكنت "صاحب أصل" يفتخر بشيم وكرم أجداده وبمكارم الأخلاق... بل كنت صاحب علم وثقافة، مثلي كمثل الآلاف من 'الإسلاميين' من أصحاب الطاقات و"المواهب" من أصحاب المبادرة والريادة الفكرية والعملية ومن الحكماء المميّزين وفي شتى المجالات والميادين.

كنت ناجحا في مجال 'الهندسة المعمارية' عندما انتقلت إلى دراسة العلوم السياسية في لندن، ولم أكن لأبقى في بلاد الغرب لولا ما كانت تقتضيه الحاجة من أجواء تساعد على التفكير الصحيح؛ ما كان لنفسي ولا لأهلي ولا لمستقبل أولادي مكانا في حساباتي هذه، ولقد دفعت لقاء ذلك ثمنا باهظا، عشرون سنة من 'الإغتراب'، وعلى عكس ما يبتغيه المغترب عادة من جمع لـ"الحيلة" و"الوسيلة"! لقد أردت أن "أتقدم" بما لا يقدر على إعطائه 'أكثر الناس'، ولما تفتقره الساحة اليوم من "أمثلة"... كان بإمكاني تسخير "مواهبي" في مجال الهندسة المعمارية، وفي هذا العمل الكثير من "الأموال"، بعيدا عن 'الهَمّ والغَمّ' وعن 'وجع الرأس'، ولكنني اخترت الإنطلاق في مجال العلوم السياسية، ولغاية واضحة في عقلي و"من صميم قلبي"؛ لم يكن تحوّلي هذا تغييرا في 'الإختصاص' أو المهنة، بل كان "تطويرا" لما أعتبره من عمارة البناء والمدن، إلى ما أقدِّرُه من "عمارة المجتمع والشعوب".

إن ما شهدته وعشته من نمط للحياة والتعامل بين الأخوة وبين أصحاب الهم والقضية الواحدة لم يكن على مستوى آمال وطموحات من فضَّل البقاء بين الفقراء وبين المجاهدين على الجاه والرفاه وكل الإمتيازات دفاعا عن الحق والعدالة وعن 'المستضعفين'. إن ما سمعته وتعلـّمته عن باقي الأمم لم يكن دقيقا، وما وجدته في هذه المجتمعات لم يكن كما كان يظن الكثيرون من المنبهرين المتفائلين. لقد سافرت كثيرا وتعمَّدت التدقيق في الكثير من "الفرضيات"، متحريا ومتلمسا حقيقة 'الخلل القائم'، ولذلك تفرَّغت للدراسة مجدّدا، ولكن برؤى صحيحة وخطى ثابتة ولهدف واضح ومحدّد ومدروس. ومن هنا كانت كتابة 'البيان الإنساني'؛ ما يعتبره بعض الزملاء 'من أهم الدراسات التي يُتَوَقَّع لها أن تشغل العمل الأكاديمي والسياسي لسنوات طويلة قادمة'؛ لا أبتغي من وراء عملي مالا ولا شهرة، ولدي من الشهادات والخبرات ما يكفي لأصِلَ، وبكل نزاهة، إلى ما لم ولن يكون يوما في حساباتي، إلاّ أن أقوم بواجبي تجاه الحق والحقيقة ومن أجل المحافظة على ما حققته البشرية من "تقدم إنساني".

إن ما دفعني لكتابة ’البيان الإنساني‘، ما رأيته من أمراض مستعصية وخلل مزمن وشامل يتفاقم في ظل "تشخيصات" كثيرة ومختلفة تفتقر إلى الخبرة أو النزاهة، مما ساهم في حالة الضياع وفي تعطيل أي مبادرة صحيحة للخلاص الحقيقي. إن ما كنت أريده أن نرى النور في نهاية "النفق"، ما كان همي أن أنتقد أو أهاجم أي فلسفة أو نظرية محلية كانت أم عالمية. وكان علي أن أكسر القيد القابض على "روح" وعملية البحث الأكاديمي أولا، ولقد دفعت الثمن أيضا لقاء وقوفي في وجه ’مؤسسات دولة‘ محتَكَرة من قبل "نخبة" منَظـَّمة، وكان لدي الكثير من الأصدقاء ممن يؤيد موقفي؛ بعضهم من أصحاب المراكز "الحسّاسة" ومن الأكاديميين المرموقين؛ ولكنني لم أرد إحراج أحد. ولقد واجهتهم منفردا؛ مواجهة ’العين للمخرز‘؛ معتمدا على ما كان يمكن أن أستند إليه من بعد ربي من وسيلة عند من أعتبر نفسي امتدادا لحيلتهم وجزءاً من كلهم... ولكنني خُذِلت يومها وخاب أملي[2].

إن ما كنت أريده من وراء كتابة ’البيان الإنساني‘، أن أساهم أو أبادر إلى معالجة "الفوضى" وحالات الضياع و"الضبابية" الفكرية القائمة والمزمنة، والناتجة عن هذا الكم الهائل من الآراء والتحاليل والدراسات العلمية والأكاديمية، السياسية و’الاستراتيجية‘ المتناقضة، والتي كانت تُكتَب وتُقدَّم في ظروف غير طبيعية، ولأهداف مختلفة تفتقر إلى النزاهة والمصداقية. إن ما أردته وأريده أن أمهِّد الطريق، أو أن أساهم في تهيئة الأرضية اللازمة، من أجل الخروج من هذا المأزق "القاتل" والمُعَطل لأي حل أو أي مبادرة صحيحة لمعالجة الخلل. وإن كل ما طالبت به كل من التقيت بهم وتناقشت الأمر معهم من قيادات سياسية وحزبية وفعاليات فكرية وإجتماعية، أن نتعاون في ما يمكن أن نخرج به من رؤى واضحة ومشتركة لما يجري من حولنا، ومن مبادئ أو "عناوين عريضة"[3] نعمل على أساسها، من أجل إيجاد صيَغ جديدة للتعامل "الحضاري" بين الفرقاء والقوى المختلفة، بدل الحقد والتقاتل، والكيد والتآمر، وبدل التخوين أو التشكيك والتلاعب بما ليس فيه مصلحة لأحد.

لقد قُدِّر لي أن أتعرَّف على بعض القيادات الإيرانية في لبنان في النصف الأول من الثمانينيات، وخلال فترة التأسيس للمقاومة الإسلامية. كنت حديث السن، حديث العهد بالإسلام، تملؤني الحماسة لما كنت أسمعه من شعارات أخلاقية تسامحية وَحْدَويَّة... ولقد أعجبت وتعلقت بما وجدته وعايشته في تلك النُّخب المميَّزة من "تواضع" وخُلُق قل ما تجده في أصحابنا من القيادات الإسلامية العربية! لم أكن محسوبا "تنظيميا" على أحد يومها، وما زلت أحافظ إلى يومنا هذا على تجردي واستقلاليتي؛ ولكنني أقرب، وكما كنت دائما، لكل من هو أبعد عن المزلات وعن مغريات الدنيا من زينة وشبهات. ولذلك لجأت أول ما لجأت إلى هؤلاء الذين أحببت وقدَّرت، ولطالما دافعت عن سياساتهم وحساباتهم، وعن مبادئهم ومصالحهم، وبكل شجاعة وبمنتهى الموضوعية وفي أدق المواقف وأصعب المناسبات. ثم لجأت بعد ذلك إلى أصحاب لي أعزاء من أمة حزب الله، ولقد لقيت منهم كل التفهم ورحابة الصدر والجدية في العمل... ولكن شيئا ما حصل بعد ذلك، وفي مكان ما انقطع الإتصال، وتعطلت الأمور.

---

[2] يفصَّل ذلك في الحلقة السابعة (بين المرتهنين لمصالحهم الخاصة، وبين المخلصين لمصلحة الوطن والمواطنين).

[3] وهذا ينطبق على الصعيد المحلي تماما كما ينطبق على الصعيد الدولي. أي أن أي حوار أو ’طاولة حوار‘ للتقارب أو التواصل أو حل المشاكل لا يمكن لها أن تتقدم في الإتجاه الصحيح إن لم يكن هناك رؤية أو رؤى عامة ومشتركة يَتفِق على صحتها وصوابيتها المتحاورون. هذه الخطوة الأولى هي ضرورة لازمة من أجل إنجاح أي مبادرة للحوار، يجب التحضير لها مسبقا وبكل عناية ومن قبل "نخبة" من المتخصصين ممن تتوَفر فيهم شروط الإستقلالية والحيادية على أن يكونو على علم ودراية بظروف و"خصوصيات" جميع أطراف الحوار. وعلى أساس هذه الرؤى الواضحة توضع عناوين عريضة أو مجموعة من الخطوات العملية، على أساس ترتيب الأولويات فيها تنطلق ’طاولة الحوار‘.

إن من بإمكانه إختراق أعلى الحصون الأمنية، ومن ينجح في استدراج العقيد ’الحنان نتنباوم‘ ليعتقله في لبنان، قادر على أن يعرف ’كل شاردة وواردة‘ عني ليتأكد من "نظافتي" وإخلاص نيَّتي. إن كل التفسيرات المعقولة والحجج الواهية لا تبرر رفض المشاركة في عمل جدي لتحصين الساحة، والإنطلاق في ما يمكن أن يبعد عنا الإستغلال والإختراق، ويجنبنا ويلات الحروب والفتن الداخلية. إنني لا أتكلم هنا عن ’الإئتلاف‘ أو ’اللجان‘؛ ولقد حاولت وأحاول إقناع نفسي أن قيادة ’الحزب‘ غير قادرة على التعامل في الوقت الحالي مع هذا المستوى من الملفات الشائكة!! كما قال لي أحدهم. ولكنني أتكلم عن نظرة البعض من القيادات الإسلامية الشيعية لما يمثل 85% من العالم الإسلامي، وعن إصرارهم على تحميل السّنة مسؤولية ’الفتنة‘، واتهام كل ’سني‘ بمناصبة العداء لآل البيت[4]، وأتساءل إن كان من مصلحة الشيعة ألاّ يكون على رأس الطائفة السنية أو في صفوفها مخلَصون وعقلانيون شرفاء يحولون دون استغلال ساحاتهم الداخلية[5] في أي "حرب استنزاف" إقليمية قادمة.

إن ما قدَّمت به في الرسالة السابقة (كتاب ’الشرق الأوسط: بوابة للحل أو باب على الجحيم‘) لمشروع منظمة ’الإئتلاف‘ ومبادرة لجان "آسا" لكافٍ من أجل إعطاء صورة مصغَّرة وواضحة عما نحاول التأسيس له من ’لوبي‘ أو’جماعة ضغط‘ دولية نعطي بها مثالا وصورة حقيقية ومشرِّفة عما ينبغي أن يكون عليه المسلمون، وندافع من خلالها عن وجودنا وحقوقنا ومصالحنا كأمة عربية على الصعيد العالمي. ولقد قمت بما يتناقض مع ظروف عملي ومكاني حينذاك من إتصالات مكثفة مع معظم المعنيين في كل من الأنظمة الإسلامية والعربية – بما يشمل إيران وتركيا والسعودية ومصر وقطر وسوريا وغيرها من الدول العربية – مقدما لهؤلاء عصارة عمل واسع أكاديمي دقيق، شاركت فيه نخبة من أنقى وأرقى العقول المتخصصة... ولكن شيئا ما في مكان ما كان يعيق إنتقالنا إلى مرحلة التطبيق العملي السليم، قد سبق وألمحت إليه في رسالتي الأولى وبطريقة غير مباشرة، عسى أن يغيِّر المعرقل من حساباته قليلا؛ ولذلك ننشر ما سننشره في هذه الرسالة لاحقا من تفاصيل.

إنني لا أريد من وراء ما أقوم به "مرغما" من وضع لبعض النقاط على الحروف إهانة لأحد، ولكنني أريد إحراج المغرضين من أصحاب الغايات والحسابات الخاصة، وأريد أن أترك للناس محاسبة كل فاجر متاجر بمصالح أمته، وكل ظالم يدوس على كرامة شعبه، ومن حولهم من منافقين. إنني لا أبتغي المزايدة ولن "يشتري" ما أكتبه أحد؛ كعادة بعض الكتاب ممن احترفوا مهنة الإبتزاز؛ ولكن الأمل ما زال قائما، أن يتحرك من خفَّت حماسته وخفت صوته من قيادات قادرة على التغيير. وبكل صراحة، يؤسفني ما أراه من غلبة لبعض الغلو والتطرف في الخصومة على لغة العقل والتعقل الذي لطالما امتاز به الإيرانيون... ويقلقني ما تقوم به دولة قطر من دور سياسي جديد أو "بديل"، كنت أتمنى أن يكون حكامها بحكمتهم من ورائه. ولكن، يبدو أن قوى الإحتكار تريد استبدال الساقط من أوراق أمريكية قديمة بواجهة أمريكية أوروبية مقبولة؛ ومن يراجع تاريخ نشأة الدول الخليجية، وما بين أمريكا والسعودية من جهة، وما يربط بريطانيا بقطر من جهة أخرى، يدرك تماما ما أعنيه.

[4] إن ما أعنيه هنا، ما هو عالق في ذهنية غالبية قيادات الشيعة من نظرة تشاؤمية، أو "سلبية"، تجاه السنة كل السنة، نتيجة تراكمات تاريخية معقدة، ونتيجة ما نراه من عيب و"مصائب" في معظم القيادات السنية الرسمية والإسلامية، ما يقف عائقا أمام أي مبادرة صادقة من أجل التقارب أو ’المصارحة والمصالحة‘ لما فيه أمن الأمة وخير المسلمين.

[5] وتجدر الإشارة هنا إلى أن من وقف وما زال يعرقل مبادرة ’تجسير الهوة‘ إنطلاقا من الطائفة السنية هم من السنة! فلقد تم عرض تفاصيل المبادرة خلال الأشهر القليلة الماضية على جميع المعنيين داخل الطائفة السنية، محليا وإقليميا، بالإضافة إلى بعض الرسميين وعلى مستوى رئاسة الدولة. ومن لم يبد حماسته لم تكن لديه تحفظات؛ ولكن المعارضة أتت ممن يدَّعون الحرص على ’أهل السنة والجماعة‘، وممن يحتكر الآن تمثيل الساحة السنية!!! (يفصَّل ذلك لاحقا)

لقد شرحت في رسالتي السابقة أيضا أسباب ما كان يستلزم منا إعادة مرحلية لبعض الحسابات، مما يستدعي الإتصال والتواصل مع بعض القوى الفاعلة والحاضرة، وبغض النظر عما يُسمع ويُقال عن البعض أو معظمهم مما نعلمه ولا نعلمه من حقائق مهينة واتهامات مشينة صحيحة أو مبالغ فيها. ولقد فوجئت بحماسة من لم أتوقع منهم إجابة أوحتى قراءة ما أرسلناه مما قد يتعارض مع مصالحهم، في الوقت الذي تجاهَلَنا فيه من يدَّعي الغَيرَة على العروبة وعلى الإسلام وعلى المصلحة العامة... إرجو ألاّ يستعجل القارئ هنا الأمور، فسيكون كلامي أكثر وضوحا لاحقا... إنني ألتزم، وكعادتي، بكل الضوابط الأدبية والأخلاقية في كلامي ووصفي لما قد أرى فيه من تناقض أو مغالط أو شذوذ، حتى ولو كان ذلك من أسوأ الناس خُلقا وأكثرها دناءة. وأرجو أن يعذرني بعض الأصحاب والأحباب ممن سيطاله شيء من كلامي... فوالله، وكما سبق وقلتها لأحد القيادات الإسلامية التي أحترم وأجل، لولا مَعَزَّتي وتقديري للكثيرين منهم وللعمل والموقع الذي يمثلونه وللأمة التي ينتمون إليها لما فعلت.

كنت وما زلت أعتبر نفسي أحد أبناء الحركة الإسلامية، ولكن ’من دون‘ تطرّف أو "تمييز"، بعيدا عن "التعصّب" والعصبية، ولما تحمله هذه الحركة من ’أمانة‘ من أجل تحقيق العدل والعدالة... إنما آمنت بالله ’الرحمن الرحيم‘، لا لأُدخِل في ظل رحمة الله وأخرج من أشاء أنا من عباده، ولكن، لأتقرَّب من ’الحق‘ وأُقَرِّب كل صاحب خير من دائرته، ولأكون ’عامل تقارب‘ بين "أبناء آدم". وإن ما ثبَّت الإسلام في قلبي وعقلي، ما قرأته وفقهته في هذه ’الرسالة السماوية‘من دعوة "عالمية" مُحتضِنة لمختلف الأمم والرسالات، لا لشعب مختار دون غيره ولا لفرقة ناجية، إنما للناس أجمعين. وفي النهاية، ليس لي على من لا يؤمن بالله شيئا إذا ما كذَّب وكذب و"استغل" ونافق وتاجر وسرق؛ فكما تقول العامة، ذنبه في الدنيا "على جنبه"، وحسابه في الآخرة على ربه... ولكن "مشكلتي"، و"هَمّ" الأمة، مع من يدَّعي الإيمان بالحق والتزام ’الحقيقة‘، في الوقت الذي يتهرب فيه من الحقيقة، كلما رأى في حدود ’الحقيقة‘ والحقيقة[6] عائقا أمام "طموحاته" الخاصة به وبمن حوله من منتفعين.

إن ما يضع الحركة الإسلامية على سلم الأولويات الآن، ما تمتلكه هذه الساحة صاحبة الإمتداد من مؤهلات للخلاص... أو "عباءة" لإختراقات خارجية جديدة قادمة فيما لو بقيت على ما هي عليه. ثلاث سنوات متواصلة تخليت فيها عن عملي، مبتعدا عن الأجواء الأكاديمية التي نما في ظلها عقلي، "فارضا" على نفسي ما لا يطيقه بشر وفي ظروف صعبة خانقة، وجدت فيها عند البعض ممن فيهم يتمثل "عُمق" الأمة العربية والإسلامية ما لا يقبله عقل أو ضمير فيه "ذرة" من حياء أو إحساس[7]. وبالرغم من وجود العديد من المخلصين الصادقين، إلاّ أن بعض القابضين "عنوة" على زمام الأمور لا "يشرِّفونني"، ولا يمكن أن ’يرفع رأسه‘ بهم أحد... لقد تخلينا عن كل الإمتيازات ومصادر الحياة، كما دفع المئات والآلاف من المجاهدين والشهداء أرواحهم، لله، ودفاعا عن مواقع ومكانة هؤلاء؛ ولطالما اعتبرتهم "الأساتذة" وأصحاب الفضل والفضيلة، ولقد خاطبتهم من موقع "الأخ الأصغر"... ولكن الأمر لم يعد يتعلق بأشخاص أو ’بخصوصيات‘ سياسية وحزبية، فمصير الأمة اليوم في خطر.

---

[6] ’الحقيقة‘: نسبة إلى ’الحق الرباني‘، والحقيقة: نسبة إلى حقيقة الأمر – منتهاه وأصله – وإلى ما يجب على الإنسان أن يحميه ويدافع عنه. والمقصود هنا: حدود ’الحلال والحرام‘، والحدود العملية الناتجة عمن ينكشف أمره أمام الناس.

[7] من المؤسف والمؤلم أن يُضطر المرء إلى استعمال هذا النوع من الوصف أو الكلام، وخاصة عندما يتعلق الأمر بأناس أقرباء أعزاء وممن ترسّخت صفات الإستقامة والوقار عندهم في نفوس الناس من حولهم، إلاّ أن ’للدبلوماسية‘ حدود بين الإخوة عندما يتحول المرض، أو يتطور الخلل، من مسألة ’اعتبار معنوي‘ إلى قضية بقاء أو وجود كياني.

أخيرا... وليس آخرا،

عندما "يَنحَط" بعض ’العربان‘ بأنفسهم الأمَّارة والدنيئة إلى مستويات تستحي فيها الحيوانات، فالإهانة والمهانة على كل العرب وعلى كل من يوحي شكله أنه عربي. وإذا ما أوقِع بين المسلمين، فالقتل لن يقتصر على صاحب الخطأ، وعلى الناس تحمل التبعات وأجيال من بعدهم أن تدفع الثمن... إن أقل ما يمكن أن يقدِّمه الإنسان في هذه الحالات الصعبة والإستثنائية، أن يخرج ولو للحظات قليلة من محيط أسر عمله أو مصلحته، ووقفة صادقة ومصارحة ذاتية، بعيدا عن كل "المكتسبات" الآنية وعن حسابات الربح والخسارة ليرى ’الحقيقة‘... عسى أن يغيِّر الله ما في مجتمعاتنا من غفلة ووهن. هذه هي ’حكايتي مع الزمن‘... ولطالما فاخرت وسأبقى أفتخر بإنتمائي إلى هذه الأمة العزيزة، وبالرغم من ما هي عليه الآن... وإن لم أجد لذلك اليوم قارئا، فللأجيال القادمة، عندما يستبدل الله بنا قوما غيرنا ’ثم لا يكونوا أمثالنا‘... عندها، ستعود الأمة إلى أصلها؛ أمة كريمة معطاءة وخَيِّرة... آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، صادقة أمينة ومؤمنة بالله، والله ولي المؤمنين والأمناء الصادقين.

الحلقة الثانية

السياسة الدولية المعاصرة: بين الواقعية والأمر الواقع

لقد أخطأ "الغرب" من قبل نتيجة استغلال حكامه لسلطة الكنيسة، وتشويههم ’للأحكام الإلهية‘؛ وبدل محاسبة المخطئ ومعالجة أسباب ’الخطيئة‘، ألقِي باللوم على ’الخالق‘ ووُجِّهَت الإتهامات و"أحكام الإعدام" إلى الدين و’العقيدة‘... ثم أخطأ الغرب مرة ثانية، نتيجة "طمع" المتنفِّذين فيه والقابضين على أمره، ليدخلوا الناس بـ "أنانيتهم" في حرب عالمية دامية؛ وبدل مراجعة الحسابات ولجم "روح الجشع" في نظامهم المادي الإحتكاري اللاأخلاقي، وُجِّهَت الإدانة إلى ’أصل الإنسان‘ وإلى ’الإنسانية‘، وإلى كل المبادئ الأخلاقية... وها هم يريدون اليوم "إقناع" العالم بما وصلوا إليه من آراء سلبية متشائمة، وإلزام كل المجتمعات البشرية بما فرضوه على شعوبهم من "أمر واقع" تحت شعار ’الواقعية السياسية‘ Political Realism.

الواقعية السياسية: جذور تاريخية

ومع أن ما يسمى بـ ’الواقعية‘؛ وكنظرية ’رسمية‘ في علم العلاقات الدولية؛ لم يكن لها تأثيرها قبل فترة الحرب العالمية الثانية، إلاّ أن لتلك النظرية جذور تعود إلى زمن المؤرخ الإغريقي ’ذوسِدِّيس‘، أو ’ذوسِدّايدِس‘ Thucydides في كتابه الشهير ’تاريخ الحرب البيلوبونيزية‘ History of the Peloponnesian War (431-404 BC)، وعالم ’الاستراتيجية العسكرية‘ الصيني ’صُن تزو‘ Sun Tzu في كتابه ’فن الحرب‘ Art of War خلال ’فترة الولايات الحربية‘ Warring States Period (403-221 BC). ولقد نوقشت هذه النظرية بعدها من جوانب مختلفة، ولكن في ظروف مماثلة ومن قبل منظرين عسكريين وفلاسفة من أمثال ’نيكولو ماكيافيللي‘ Niccolo Machiavelli (1469-1527)، ’توماس هوبز‘ Tomas Hobbes (1588-1679)، و’كارل فون كلاوزفِتش‘ Carl von Clauswitz (1780-1831). ففي الوقت الذي يقدِّم فيه ماكيافيللي العالم بصورته السلبية "السوداوية" التي يجد فيها الإنسان نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يلجأ إلى ’استغلال ضعف الجماهير‘ أو ’عامة الناس‘ من حوله، أو أن يقع رهينة أو ’فريسة‘ لغوغائيّاتهم و’معاملاتهم المهينة‘، يؤكد هوبز على أن ’طبيعة الخلق‘، إنما هي أشبه بحالة حرب ’الكل ضد الكل‘ war of all against all، أو أن ’الحرب هي السبيل‘، كما يقول فون كلاوزفتش، ’في صراع أبدي على السلطة، من أجل البقاء ودفاعا عن الوجود، في عالم فوضوي غير آمن‘.

إن أول ما يلفت النظر في هذه النظرية، أنها غالبا ما كانت تثار في ظل الإهتزازات الأمنية، وعلى أثر الحروب الدامية، تماما كما "فرضت" نفسها مؤخرا على وقع الحروب والثورات الشعبية التي شهدتها ساحات ’الغرب‘ منذ منتصف القرن التاسع عشر، وصولا إلى الحرب العالمية الثانية. وبدلا من أن يكون للنظرية مكانها في دُور وساحات الفكر والعمل السياسي كقراءة من بين القراءات، فإذا بها تُفرَض وبطريقة تسلّطية، "من وحي المناسبات" الصعبة التي ولدت في ظلها وفي أجوائها، وبأسلوب "إلغائي" لكل ما سبقها وخالفها، وفي ظروف إستثنائية، بعيدة عن المنطق والواقعية.

لقد نمت وهيمنت هذه النظرية على ما كان يشغل الساحة الأكاديمية حتى مطلع القرن العشرين من نظريات مؤيدة لـ ’مذهب المثالية‘ Idealism، لا لضعف أو خلل في مبادئ هذا المذهب "التوفيقي" المسالم، ولكن لبعده أو عدم "تأقلمه" مع المستجدات ومع الواقع الجديد الذي أفرزته النزعة الفردية والمادية على الساحة الأوروبية[8]. وفي الوقت الذي يمكن فيه للإنسان أن يتفهَّم أسباب فشل منطق "المثالية" في الحياة السياسية المعاصرة، إلاّ أن ما تدَّعيه "فلسفة الواقعية" من واقعية، إنما فيه الكثير من التشويه والتضليل أو التبسيط و"السطحية".

بين ’الواقعية‘ و’المثالية‘

’إن ما يحكم أفعال الناس، إنما هي المصالح وليست الأفكار (أو الأخلاقيات). إلاّ أن ما تخلقه هذه الأفكار من صور مختلفة للعالم‘، كما يقول ’ماكس وبر‘ Max Weber (1864-1920)، ’غالبا ما تجدها وراء تقرير اتجاه المسارات التي على أساسها تتحكم تلك المصالح بأفعال الناس‘. فللمصالح دوافع مادية "أنانية" ودوافع فكرية أخلاقية؛ ومَثل المصالح من الأخلاقيات كمثل الواقعية من المثالية من حيث الترابط والحاجة إلى التكامل على أساس التعَقـّل والوسطية... وفي الوقت الذي يتخلى فيه أحدهما عن الآخر، يولد التطرّف ويحدث الخلل.

لقد اعتُمِدَت هذه القاعدة على أثر الإنقلابات والتغيرات الإجتماعية والسياسية الكبرى الأخيرة، وليحتفظ على أساسها النظام العالمي الجديد بشيء من التوازن؛ وحتى فترة الحرب العالمية الثانية، إقتصر النداء عند أصحاب ’الواقعية التقليدية‘ على ضرورة التفريق في السياسة بين الرأي والحقيقة؛ أي بين ما هو محكوم بالفرضيات و’الأماني‘، وما هو صحيح بحكم المنطق والعقلانية. وكما يؤكد ’مورغنثو‘[9] Hans Joachim Morgenthau (1904-1980)، فـ ’الواقعية السياسية‘ بطبيعتها ’لا تتطلب ولا تؤيد تجاهل المثاليات السياسية والمبادئ الأخلاقية، ولكنها تُصِرّ على التمييز الدقيق بين ما يتمناه المرء وبين ما يمكن تحقيقه؛ أو بين ما نتمناه في كل مكان وزمان وبين ما يمكن تحقيقه في ظل ما يفرضه الزمان والمكان من ظروف "واقعة" لا يمكن تجاهلها‘[10].

ولعل ما كان يريده ’مورغنثو‘ من وراء كتاباته أن يضع حدا؛ وكما يقترح بعض المحللين؛ لهذا الخلاف القائم بين ’الواقعية‘ و’المثالية‘، والذي أدى إلى ما شهدته الحضارة الغربية من ’أزمة‘ أبان الحربين العالميَّتين الأولى والثانية، وما عانته المجتمعات الأوروبية من تطرف في فكر التحرر Liberalism، وتسلط لسياسات ’الأمر الواقع‘ على حساب الواقع و"المنطق" وكل القيم الأخلاقية.

---

[8] من الصعب أن ننكر تأثير التغيرات الكبرى التي شهدتها الساحة الأوروبية أبان فترة الإصلاح و’عصر النهضة‘، ومن الخطأ تجاهل العلاقة المباشرة بين أجواء الحروب المرافقة لتلك الفترة وبين النزعة والنظرة السلبية والمتشائمة لطبيعة الإنسان، والتي سبق وتكلمت عنها في الكتاب السابق وسنتكلم في تفاصيلها لاحقا في ترجمة ’البيان الإنساني‘.

[9] هانس جوشيم مورغنثو، هو واحد من أهم منظري ’مدرسة الواقعية‘ في القرن العشرين، وكان ’رائدا‘ في مجال ’نظرية العلاقات الدولية‘، متأثرا بما عاناه على يد ’النازيين‘ من ’معاداة للسامية‘ بعد فترة الحرب العالمية الأولى، وليُحدِث بكتاباته تغييراتا جذرية في مبادئ ومفاهيم العلاقات الدولية و’الدبلوماسية‘ وفي سياسات الدول الخارجية.

[10] راجع مقدمة كتاب Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace (NY, 1978)، الطبعة الخامسة، الصفحات 15-4، لمورغنثو؛ مع الإشارة إلى أهمية الكتاب وكمرجع رئيسي لطلاب السياسة الدولية منذ كتابته وإلى يومنا هذا، ولما لعبه من دور أساسي في تهيئة الولايات المتحدة للعب دور ’القوة العالمية المهيمنة‘، أبان وبعد فترة الحرب الباردة.

لعله كان يريد تهيئة الأجواء من أجل إصلاح الخلل و'حالة التحلل' في 'الفكر السياسي الغربي'، اللذي كان وما زال بأمس الحاجة إلى منظور أو 'نظرية أفضل' ومُجَدِّدة للفكر والعمل السياسي، وقادرة على ردم الهوة أو 'التوفيق' بين المصلحة الوطنية National Interest والمصلحة الخاصة Self Interest، وبين المبادئ الأخلاقية Moral Principles وواجب الدفاع والحفاظ على مصلحة و'بقاء' الأمة والوطن The Moral Principle of National Survival... ولكن، و"كالعادة"، وكنتيجة محتملة لسوء التعبير أو سوء الفهم، أو تفسيرا إنتقائيا متعمدا ولغايات واضحة ومعروفة، تُهَمَّش الإيجابيات والحقائق، وتُبنى على السلبيات وعلى الشبهات "الوقائع"، ليصبح بعد ذلك الشعار في ما قاله يوما "المُلهِم العظيم" أبيراهام لينكولن: 'لا يهمني ما يُقال عني إن نجحت في النهاية؛ وإذا ما انتهى بي الأمر إلى الفشل، فإن عشرة ملائكة تحلف بالله أنني كنت صائبا ومحقا في مسلكي، لن يغير من الأمر شيئا'.

نظرة 'الواقعيين' للقيادة السياسية

'إن على رجل الدولة أن يفكر ويعمل ضمن مفهوم المصلحة الوطنية'، وبخلاف المنطق العام الذي يقَيِّم الأمور عادة على أساس 'قواعد أخلاقية وقانونية مبسَّطة للخير المطلق والشر المطلق' simple moralistic and legalistic terms of absolute good and absolute evil.[11] فعلى أساس هذه القاعدة "الواقعية"، المخالفة للأعراف الديمقراطية، امتازت رئيسة وزراء بريطانيا 'مارغريت تاتشر' Margaret Thatcher على خلفها الأكثر لطافة 'جون مايجر' John Major؛ تماما كما أثبتت سياسات 'ونستن تشيرشل' Winston Churchill من قبل تفوقها على أخلاقيات سلفه 'نُفيل تشامبرلاين' Neville Chamberlain، كما يقول 'مورغنثو'[12]. ولكن الواقعية الحقيقية التي دعا إليها الكثيرون من منظري ومؤيدي 'الواقعية السياسية'؛ وعلى رأسهم 'هانس مورغنثو'؛ لم تكن لتقدِّم ما يفرضه الواقع من نمط فكري وعملي مرحلي على ما يقتضيه المنطق و'الأخلاقيات' من مبادئ ومسارات ثابتة وراسخة... وما كانت لتسوِّق أو تبرِّر ما تتَّبعه اليوم كل القيادات السياسية من سياسات للأمر الواقع، ولمصالح شخصية، بإسم الواقعية وعلى حساب المصالح العامة والوطنية.

'إن أفضل ما يكون عليه القائد (السياسي والإجتماعي)، عندما "يكاد" يشعر الناس بوجوده؛ قليلا عندما يطيعونه ويهللون له؛ وإن أسوأ ما يكون عليه عندما يكرهونه' Lao-Tsu (630 BC). هذا ما يستشهد به عالم 'العلاقات الدولية' المعاصر 'جوزف ناي' Joseph Nye (born 1937)، وما يؤكد عليه في كتاباته، عندما يُسَلِّم بما يحتمله قول 'ماكيافيللي' من صِحّة في تقديمه لمصلحة 'مخافة القائد' على 'محبته'، وليذكِّرنا بعد ذلك أن ما يقابل المحبة هو 'الكراهية' وليس الخوف!

---

[11] Hans J. Morgenthau and Kenneth Thompson, 'Politics Among Nations', 6th edition (New York: McGraw-Hill, 1985), p. 165.

[12] يقول 'مورغنثو' في كتابه السابق الذكر 'السياسة بين الشعوب' Politics Among Nations، في سياق كلامه عن "مبادئ الواقعية السياسية الست" Six Principles of Political Realism، أن ما كان يتبعه 'تشامبرلاين' من 'سياسات للتهدئة'، إنما كانت نابعة من نواياه الصادقة للحفاظ على السلام وخير الجميع؛ 'ولعله كان الأقل إهتماما بمصالحه الخاصة من أي رئيس وزراء بريطاني آخر'، إلاّ أن أخلاقياته هذه 'جعلت من الحرب العالمية الثانية حقيقة لا مفرَّ منها، كما جلبت في النهاية المآسي لملايين الناس'... مقارنة مع ما كان يبتغيه 'تشيرشل' من مصالح خاصة، وطنية و'شخصية'؛ ألاّ أن ما تمخض عن هذه 'النوايا الدنيئة' من سياسات خارجية "واقعية"، إنما أدت في النهاية إلى نجاحه السياسي.

ومن المعروف أن ’القيادة لا تقتصر على إصدار الأوامر، بل بالقدوة والأسوة الحسنة والمقدرة على جذب الآخرين ليقوموا بما تريد‘، عن طريق ’الإقناع بالحُجَّة‘ والبراهين الملموسة، وبـ ’الرؤيا‘ التي على أساسها يتَّبِعك الآخرون... وإن ما يساعد على خلق هذه الخيارات والقناعات عند عامة الناس، أنما يكمن في تلك القوى الخفية المتمثلة في مجموعة من ’العوامل المعنوية‘ intangible assets، من ’شخصية جذابة وقِيَم ومؤسسات ورؤية، قيمتها في شرعيتها وفيما تمتلكه من سلطة أخلاقية‘، مما ’يخفف من تكاليف القيادة‘، عندما يرى الناس فيها شعارا ومثالا يُقتدى به[13]. ولكن، عندما ننظر إلى ما يجري على ساحة الواقع، مقارنة مع ما "يعلنه" أصحاب ’التحاليل البناءة‘ من منطق إيجابي، ندرك عندئذ خطورة ما يجري من وراء الكواليس من تلاعب بإرادة وتوجهات المؤسسات والدوائر العلمية والسياسية "المؤثرة" على مراكز ’صناعة القرار‘ الدولي[14].

مبدأ ’سياسة القوة‘

من طبيعة الإنسان والشعوب أو المجتمعات البشرية أن تتقدم وتتطوَّر مع تغيرات الحياة، وعلى مَرّ الزمن تجدها (المجتمعات البشرية) في ’حالة مخاض‘ متجددة من التغيرات الإجتماعية. وما يُميِّز أصحاب ’الواقعية السياسية‘ عن غيرهم من المدارس الفكرية، ما يقدِّمُه "الواقعيون" من أساليب "ملتوية" ’للتلاعب بما سبق وحدد مسار تلك التغيرات من قبل وسيحدده في المستقبل‘[15]. وفي الوقت الذي يجمع فيه الحكماء على دور القيادة الحكيمة والصفة التقدمية للتغيرات الإجتماعية، يصر "الواقعيون" على مبدأ ’القوة‘ الضامنة للمصلحة التي تتحرك على أساسها القيادات السياسية... وفي الوقت الذي يشدد فيه العقلاء على أهمية القيم والبصيرة والأسوة، كمكونات أساسية لقوة القيادة، يصف ’الواقعيون الجدد‘ من ’يجيد إكراه الناس‘ على الإنصياع لرغباتهم بـ ’المتسلطين العظماء‘![16]

’إن المفهوم الأساسي للقوة، هو المقدرة على "التأثير" على الآخر ليفعل أو يقوم بما تريد‘، إما عن طريق ’التهديد بالعصا‘، إما عن طريق ’الترغيب بالجزرة‘؛ أو إذا أمكن، فبالإقناع والتأثير على رغبات الآخرين ’ليذعنوا‘ لما تقتنع وترغب به[17]. إن في ’قوة الجذب‘[18] هذه إختصارا وتوفيرا للكثير من المآسي إذا ما أمكن اتباعها، وكبديل "واقعي" لما يهيمن اليوم وبالأمس على ما يسمى بالواقعية السياسية من قهر وجبرية[19]، شرط توَفُّر مقوِّمات نجاح هذه السياسة البديلة من ثقافة مُقنِعة، وقِيَم خالية أو بعيدة عن النفاق عند التطبيق، وسياسات خارجية شرعية وقانونية في عيون الآخرين. ولكن، عندما نرضى بإخراس لغة المنطق وتهميش القيم والشرائع... فشريعة الغاب عندئذ هي البديل.

---

13 مقتطفات من بحث أكاديمي لجوزيف ناي تحت عنوان: "Soft Power, Hard Power and Leadership".

14 المقصود هنا، هي ’النخبة العاطلة‘ المسيطرة حاليا على تلك المؤسسات، أمثال The Fletcher Foundation، The Carnegie Foundation، Chatham house، الـ CFR والـ ESRC، على صعيد المثال وليس الحصر.

15 المبدأ الثالث الذي حدده مورغنثو في المرجع السابق: Six Principles of Political Realism.

16 Roderick Kramer, "The Great Intimidators", Harvard Business Review, Feb 2006, p 90

17 أو ما يسمى بمبدأ ’القوة الناعمة‘ Soft Power الذي دعا إليه البروفيسور ’جوزيف ناي‘ Joseph Nye, Jr. من جامعة هارفرد Harvard في سنة 1990، ليطور به ويفصله بعد ذلك في كتابه ’القوة الناعمة: السبيل إلى النجاح في السياسة الدولية‘ Soft Power: The Means to Success in World Politics في سنة 2004.

18 أو ’Attractional Power‘: التعبير الذي استعمله جوزيف ناي في تعريفه لمفهوم ’Soft Power‘.

19 "قوة الإجبار"، أو ما يسمى بـ ’القوة الصلبة‘ Hard Power، والتي تعتمد غالبا على غلبة ’المعايير الكمِّية‘: كعدد السكان، وعظمة وقوة الجيش أو القوة العسكرية، وحجم ’إجمالي الناتج المحلي‘.

إن ما تشهده الساحة الأكاديمية من خلافات فكرية جديدة، "محصورة" في خياري سياسة القوة من ’قوة صلبة‘ وأخرى "ناعمة"، وفي ظل أحكام سلبية ومُسبقة لما تحتمله ’قوة الإقناع‘ من بدائل يُعمل على إزالة أسباب ومقومات نجاحها؛ إنما سينتهي بنا مجددا لما فيه مصلحة وتثبيتا لمنطق القوة المعتمدة حصرا على أساليب المكر والنفاق السياسي. إن ما ستشهده السياسة الدولية من بديل مؤقت لما مارسته القوة العظمى من "تسلط" على أساس خيار ’القوة الصلبة‘ لا يمكن أن تعلق عليه الآمال، وإن ما ستتبَّعه هذه "القوة" خلال السنوات القليلة القادمة من "سياسة ناعمة" لن يغيّر من الأمر شيئا. فنصيب سياسة ’ليّ العقول‘ لن يكون أفضل من نصيب سياسة ’ليّ الأذرُع‘ في ظل النوايا السيِّئة؛ وعلى من يعلِّق الآمال على إحقاق الحق في هذه الحالة أن يستفيق من ثباته؛ وعسى أن نُثبت للتاريخ أننا بشر يفكر ويعقل ويتقدّم ويتطوّر، وأن ما يُفرض علينا في ظل الجهل والضياع من ’أمر واقع‘، ومفاهيم "حيوانية" لما يحكم حياتنا ومصالحنا، إنما هي حالات إستثنائية "شاذة" لا يمكن لها أن تدوم.

إن ما نعيشه اليوم مما يسمى بـ ’سياسة القوة‘ Power Politics، إنما هو تعبير حديث أطلقه العالم الإنكليزي ’مارتن وايت‘[20] Martin Wight (1913-1972) على ما رءاه وقيَّمه من حالة للعلاقات الدولية بين ’سيادات‘ Sovereigns، أو دول ’ذات سيادة‘، همُّها حماية كياناتها ومصالحها عن طريق تهديد بعضها البعض بالقوة العسكرية أو الإقتصادية أو السياسية؛ الغلبة في هذه ’التركيبة‘ لمن يمتلك القدرة على إيزاء الآخرين! وعلى هذا الأساس، فإنه من "طبيعة" الدول، أو "الشعوب"، أن تتنافس على مصادر الثروة والقوة والحياة في صراع أزلي من أجل البقاء، المصلحة الخاصة فيه دائما فوق مصلحة الآخرين، أو مصلحة ما يسمى بالمجتمع الدولي... وعلى هذا الأساس أيضا انبنت السياسة الدولية المعاصرة، وفي ظل هذا المفهوم للعلاقات الدولية أنشئت المؤسسات الدولية الحالية؛ أي أن ما يسمى بـ ’المجتمع الدولي‘ أو ’الأمم المتحدة‘ أو ’مجلس الأمن‘ أو ’المحكمة الدولية‘ وغيرها من المؤسسات الدولية "الإنمائية" أو "الخيرية"، إنما هي من أجل التخدير وكسب الوقت، ومن أجل تثبيت ’الأمر الواقع‘، لا للأمن والإستقرار، ولا للسلام وخير الإنسان، كما يظن الكثيرون.

المستقبل والحقيقة

إن ما يحكم السياسة والعلاقات الدولية اليوم تحت شعار ’الواقعية السياسية‘، إنما هو مبني على فرضيات فلسفية إجتماعية "متشائمة"، تُصرُّ على الأصل "المشاغب" و’الأناني‘ للإنسان، وعلى الطبيعة ’العدوانية‘ للدولة، في ظل نظام عالمي ’فوضوي‘ تتحرك فيه الدول على أساس الرغبة في تحقيق أكبر قدر ممكن من القوة والنفوذ و"الهيمنة"، بدلا من ’القيم‘ و’المبادئ العامة‘... كل دولة تسعى، وبشكل منفرد، من أجل تحقيق مصلحتها الوطنية المتمثلة ببقائها و’بأمنها القومي‘ المعتمد بدوره على ما تمتلكه الدولة من قوة عسكرية وإقتصادية... وبالتالي، فإنه من المستحيل، حسب رأي مؤيدي هذه النظرية، الإتفاق أو الوصول إلى ’قيم مشتركة‘ أو ’مبادئ دولية مشتركة‘، أو أي إجماع على أي نظام دولي جامع، في ظل غياب ’حكومة عالمية‘ World Government قادرة على "فرض القانون" و"معاقبة من يسعى إلى تحقيق مصالحه الخاصة على حساب الآخرين".

---

[20] يعتبر ’وايت‘ من أهم أساتذة ’العلاقات الدولية‘ في القرن العشرين، كما يعتبر كتابه ’سياسة القوة‘ من أهم الكتب وأكثرها تأثيرا في مجالات السياسة والعلاقات الدولية، العلمية والتطبيقية، ومنذ الحرب العالمية الثانية، إلى يومنا هذا.

إن ما تثيره وتروّج له فعاليات ’النخبة العاطلة‘ المتسلطة والقابضة على مراكز صناعة القرار من صورة سلبية للواقع البشري، ولأصل الإنسان، يستحيل على أساسها الوصول إلى ما يحتاجه ’المجتمع الدولي‘ لضمان أمنه و"استمراريته"، من مبادئ وقيم إنسانية دولية مشتركة تحتكم إليها الشعوب والجماعات في علاقاتها وعند الخلاف والأزمات، إنما يُراد به "تيئيس" أصحاب الفكر، وقطع الأمل والطريق أمام أي مبادرة من أجل الإصلاح أو التغيير. وإن ما يطرحه ’الإحتكاريون‘ على بساط البحث من حل في ما يسمى بـ ’الحكومة العالمية‘، إنما هدفه استعادةً لنظام ’العبودية‘، وتثبيتا للهيمنة القائمة، ومن أجل فرض ما لا يمكن قبوله بالمنطق والطرق الديمقراطية في حال فشل محاولات ’الإستيعاب‘، أو تغيير ’النمط الطبيعي‘ الذي على أساسه يتقدم الناس و"تتطور" الشعوب. ثم إن في ما نشهده من استبدال لتلك ’الوحدة السياسية‘ (الدولة) بكيانات أوسع وبمواصفات مختلفة، وفي ظل ما نراه من تحلل لما بنى عليه ’الواقعيون الجدد‘ نظريتهم من دولة شرعية "ذات سيادة"، لدليل قاطع على تخلـّف ما تحمله بعض القوى المحلية والإقليمية من عقلية ’شوفينية‘ وفكر انعزالي.

إننا نعيش اليوم في ظل ما يسمى بـ ’زمن المعرفة‘، و’ثورة معلوماتية‘ تغيرت فيها القواعد التي انبنت على أساسها الدول والمنظمات المعاصرة؛ وكما يقول ’مورغنثو‘، أن ما نعرفه من علاقة بين الدولة والمصلحة، ’إنما هو من منتجات التاريخ، وبالتالي، فإن مصيره إلى الزوال مع التاريخ‘. وكما بيَّنت ومن بداية هذه الحلقة، فإن ما يستند إليه "الإنعزاليّون" المعاصرون في رفضهم للحقيقة، إنما هو مبني على "نظرية" إستثنائية ترعرعت على وقع الحروب والإهتزازات الأمنية والسياسية، لتُفرَض بعد ذلك وبطرقة تسلـّطية إلغائية، على ما كانت وما زالت تحتمله الساحة من واقعية حقيقية. نعم، إن ما أدى في النهاية إلى هيمنة هذه "النظرة التشاؤمية" على ما أفرزته الحركات الإصلاحية أبان ’عصر النهضة الأوروبية‘ من إيجابيات و’مثالية‘، إنما يعود إلى فشل ’منظري المثالية‘ آنذاك في متابعة التطورات و"التأقلم" مع المستجدات الإجتماعية. ولكن الفضل في تحقيق تلك "الهيمنة"، وقبل كل شيء، يعود لما قامت وتقوم به تلك النخبة المنَظـَّمة من جهد دؤوب وقراءة دقيقة للواقع، وتحليل مفصَّل لما تتحرَّك وتتفاعل على أساسه الجماهير (من خلال ’علم النفس‘ وبجميع فروعه)، مما أدى إلى نجاحها في السيطرة على كل أو معظم المؤسسات التربوية والإقتصادية والإعلامية، وعلى "شرايين" الحياة السياسية، وعلى مراكز الضغط و"التأثير" على ’حركة التطور الإجتماعي‘.

إن مواجهة الأمر الآن يتطلَّب ومن الجميع التعاون على ما يمكن الإتفاق عليه من قيم مشتركة، أو "مصالح مشتركة" (مجاراةً للأمر الواقع)، تبنى على أساسها "التحالفات الجديدة"، وبما يتناسب مع الواقع السياسي الجديد. وإن ما وصلت إليه تلك النخبة الإحتكارية من نفوذ سياسي واقتصادي، من المستحيل على أي دولة محاسبته ولو مهما كبر شأنها، إنما هو بحاجة إلى نخبة منظمة مقابلة يتعاون فيها الشرفاء من علماء السياسة والقانون وباقي العلوم الإجتماعية مع ما تبقى ’في هذه الدنيا‘ من ’طاقات‘ عملية "نظيفة" وإعلامية "صادقة"، وفي ظل ما يمكن الإجماع عليه من رؤى مشتركة تجمع بين المثالية والواقعية، من أجل تهيئة الأجواء والأرضية "المناسبة" لمعالجة هذا الخلل الدولي. هذا ما يتطلبه الواقع وتستلزمه الواقعية الحقيقية؛ وللحقيقة، أن ما هي عليه معظم الزعامات السياسية والكيانات الرسمية الحالية (إلى أي منظومة سياسية أو "محور" دولي إنتمت)؛ وفي ظل ما نراه من أنا ونفاق وجهل وتخاذل؛ لن يكون في مصلحة الناس أو المصلحة العامة على المدى المنظور... وإلى أن يستفيق العقلاء وقبل فوات الأوان، أو تنتفض الشعوب المسلوبة إرادتها والجماهير المقهورة وما يُعمَل الآن على تخريجه من أجيال ضائعة متمرِّدة "حيوانية" جائعة، لتكون من أول ضحاياها رؤوس تلك الأنظمة المستهترة بحقيقة ما يجري من حولها، وبحق ومستقبل شعوبها والناس أجمعين.

الحلقة الثالثة

لعبة المحاور: محور ’الشر والتطرّف‘، ومحور ’الخير والإعتدال‘

أملي أن تستمع الشعوب إلى ندائنا، وتتخلّص من الطفيليات الإرهابية التي تتهدد بلادها كما تتهدد بلدنا... وعلى بعض الحكومات التي ستتردَّد في مواجهة الإرهاب أن تعلم جيدا أنها إن لم تتحرّك، فإن أميركا ستتصرَّف. هدفنا أن نمنع تلك الأنظمة الداعمة للإرهاب من تهديدنا أو تهديد أصدقائنا وحلفائنا ... دول مثل هذه، وحلفاؤها من الإرهابيين، يشكلون محور شر يتسلح من أجل تهديد السلام العالمي... الوقت ليس في مصلحتنا. ولن أنتظر الأحداث، في الوقت الذي تتجمع فيه المخاطر... حربنا على الإرهاب بدأت، ولكنها فقط البداية... هي دعوة من التاريخ لنا ولحلفائنا إلى المعركة، وإنه لمن دواعي المسؤولية والفخر أن نحارب قتال الحرية.[21]

جورج و. بوش (كانون الثاني/يناير 2002)

’محور الشر‘: تذكرة ومقاصد

إن أول ما يبرز في ذهن المواطن عند ذكر كلمة "محور" Axis، خاصة في بلاد الغرب، يتمثل في ما عرفته تلك الشعوب، الأوروبية على وجه التحديد، من تهديدات من قبل ’دول المحور‘ أبان الحرب العالمية الثانية (ألمانيا وإيطاليا واليابان)، مما يستدعي الإستنفار وبشكل مباشر وتلقائي. ومن الواضح أن استخدام هذا التعبير من قِبل ’بوش‘ قد تم بعناية "فائقة" ودراسة دقيقة ومسبقة[22]، من أجل تهيئة الأجواء وتحضير الناس لما ينتظرهم من حرب مكلفة لا بد من قبولها وتحمل تبعاتها. فما كان يراد من وراء كلمة ’محور‘، وكتعبير مجازي metonym يشير إلى ’النازية‘ و’الفاشية‘، هو التذكير بما سبق الحرب العالمية الثانية من أجواء مشحونة[23]، وكما يقول ’دانيال هيرادستفايت‘ Daniel Heradstveit (2005)، من أجل ’إعادة تركيب النظام العالمي على النحو الذي كان عليه في الثلاثينيّات – أي محاولة النظر إلى العالم من حولنا بعيون الثلاثينيات؛ فالشر في دول المحور، وعلى الناس أن تتهيأ من أجل مواجهة الأمر‘[24].

---

[21] مقتطفات من خطاب ’حالة الإتحاد‘ (State of the Union (29 January 2002.

[22] ومع أن الذي إختار تعبير ’الشر‘ هو جورج بوش، وذلك لدوافع دينية إنجيلية واضحة، إلاّ أن من قام بدراسة واختيار الشعار كان ’دايفد فروم‘ David Frum، وهو ’صهيوني متطرف‘ ناشط في أروقة صناعة القرار السياسي في كل من كندا والولايات المتحدة، كما أنه معروف بذكائه و"حنكته"، وليكون أول موظفي البيت الأبيض والوحيد من غير حاملي الجنسية الأميركية.

[23] بما فيها ما شهدته تلك الفترة من حالة ’كساد عام‘ وشامل Great Depression على صعيد الإقتصاد العالمي، إنطلاقا من الولايات المتحدة وعلى أثر إنهيار ’البورصة‘، ومما أدى في النهاية إلى إندلاع الحرب العالمية الثانية.

[24] ورقة تحت عنوان ”The Axis of Evil Metaphor“، قدِّمت في المؤتمر السنوي السادس والأربعون لجمعية الدراسات الدولية في ’هونولولو‘ / 5 آذار 2005. وهي مبنية على تقرير موسَّع للمؤسسة النروجية للشؤون الخارجية في ’أوسلو‘ NUPI (تقرير رقم 277 / أيلول 2003)، بدعم وتوجيه من مجلس البحوث ووزارة الخارجية النروجية.

لقد أراد ’بوش‘، وإدارة ’سياسة القوة الصلبة‘ من ورائه، أن يضع حدا مؤقتا للمنطق والعقل، من أجل الإنتقال مباشرة إلى العمل (العسكري)، كما يفصِّل ’هيرادستفايت‘، أيضا، مستشهدا بعد ذلك بما اعترف به أحد مستشاري ’بوش‘ في إحدى المقابلات الصحافية قائلا: ’نحن الآن إمبراطورية، وعندما نتصرَّف، نخلق الواقع الخاص بنا، وبكل دقَّة نتحرَّك مرة أخرى، لنخلق وقائع جديدة أخرى؛ ما يمكن لك أيضا أن تتدارسه؛ وهكذا تتطور الأمور. نحن نصنع التاريخ... أما أنت، وكل العالم، كل ما يمكنكم فعله، فقط، أن تدرسوا ما نقوم به‘[25]. هذا ما يجب أن ننتبه إليه الآن؛ ويكفي أن نعود إلى ما خلصنا إليه في الحلقة السابقة، لنستدرك ما نستطيع إدراكه مما تخفيه "الوقائع" من حقائق، ولنستدل على حقيقة من يقف وراء تلك ’الشعارات المبهمة‘، وما تخفيه الكثير من العناويين البراقة، وما يراد من ورائها على مستوى الساحة السياسية الدولية وعلى الصعيدين الإقليمي والمحلي.

للعبة المحاور هذه مقدمات تعود إلى ما طلعت علينا به الولايات المتحدة في بداية التسعينيات مما يسمى بـ ’الدول المارقة‘[26] Rogue States، وعلى أثر إنهيار الإتحاد السوفياتي. إلا أن ما ألهم ’دايفد فروم‘ في تحديد خياره، يكمن في ما وصف به عالم السياسة الإسرائيلي ’يوسف بودانسكي‘[27] Yossef Bodansky طهران وبغداد ودمشق بـ ’حلف المحور الجديد‘ The New Axis Pact‘، في تقريره[28] عندما كان مديرا للّجنة الخاصة المسؤولة عن قضايا الإرهاب والحرب غير التقليدية the Congressional Task Force on Terrorism and Unconventional Warfare التابعة لمجلس النواب الأميركي. فلقد قالها ’فروم‘ في كتابه ’الرجل المناسب: الرئاسة المفاجئة لجورج و. بوش‘ The Right Man: The Surprise Presidency of George W. Bush أنه و’بالرغم من النزاعات القائمة بين إيران والعراق والقاعدة وحزب الله، إلاّ أنهم جميعا مستاؤون من قوة الغرب وإسرائيل، وكلهم يحتقر ويكره القيم الإنسانية للديمقراطية‘... وفي ذلك ما يكفي لتوضيح العقلية والخلفية الثقافية لمن بيده الآن مفاتيح ’القوة المهيمنة‘، وما يبيّته هؤلاء لكل الناس، ولشعوب منطقة الشرق الأوسط، وللعرب والمسلمين.

المسألة لا تحتاج إلى الكثير من العناء لنتبيَّن ما يُراد ومن هو المقصود من وراء هذه التسميات من ’دول مارقة‘ و’محور شر‘ و’محور الراغبين‘ Axis of the Willing و’ما بعد محور الشر‘ Beyond the Axis of Evil، إلى ما وصلنا واستقر عليه الأمر مؤخرا على يد ’دان غِلِرمان‘[29] Dan Gillerman مما يسمى بـ ’محور الإرهاب‘ Axis of Terror. يكفي لأي إنسان أن يبحث عن هذه التعابير وعن أسماء طارحيها على ’الإنترنت‘ ليكتشف ما يَجمَع بين تلك "الجوقة المنظمة" من معتقدات إلغائية لوجود من يخالفهم من الأمم والشعوب، ليراجع حساباته ويعدل من اصطفافاته... وليعلم من لم يعد باستطاعته "توريث" أبنائه مفاتيح التسلط على حياة ومستقبل شعبه ومقدرات بلده، أن التغيير قادم، وأن ما يُطمئنُه به الإستغلاليون و"الجائعون" من تجار الخطابات والمقالات الحاقدة، فليمُدَّهم في طغيانهم؛ وأن ما ينجح فيه هؤلاء من تسويق لفكرة ما يسمى بمحاور التطرُّف والإعتدال لن يدوم طويلا، فالوقت هذه المرة ليس في مصلحتهم... وسيعلم الذين ظلموا غدا أي منقلب ينقلبون.

---

[25] .Ron Suskind, “Without a Doubt”, *New York Times*, October 17, 2004

[26] شمال كوريا، أفغانستان، إيران، العراق، وليبيا.

[27] صهيوني متطرِّف آخر، من مواليد إسرائيل ويحمل الجنسية الإسرائيلية، وممن يجاهر بولائه "الأول" لإسرائيل، وقبل ولائه للولايات المتحدة.

[28] تقرير تحت عنوان “Tehran, Baghdad & Damascus: The New Axis Pact” بتارخ 10/ 1992/8.

[29] سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة (نيسان/أبريل 2006).

أهداف ’لعبة المحاور‘ على الساحة الدولية

وبالرغم من الثروة التي جنيتها في الأسواق المالية، إلاّ أن ما يخيفني الآن، ما تشهده ’الرأسمالية المتحررة‘ من "فلتان" في سبل إنتشارها، وما نراه من فرض ’لقِيَم السوق‘ على جميع جوانب ودوائر الحياة، مما يشكل تهديدا خطيرا لمجتمعنا الحر والديمقراطي. بالأمس كان الشيوعي؛ إلاّ أن العدو الأساسي للمجتمعات الحرة، وكما هو واضح اليوم، يتمثل بـ ’التهديد الرأسمالي‘.[30]

جورج سوروس (شباط/فبراير 1997)

تعقيبا على ما قاله وحذر منه ’ماركس‘ و’إنجلز‘ Marx and Engels في ’البيان الشيوعي‘ the Communist Manifesto سنة 1847 من مغبة ما كانت "وما زالت" تتبَّعه ’البرجوازية‘ the Bourgeoisie من ’تدمير [ممنهج] للصناعة المحلية‘ و’إستغلال [رخيص] للسوق العالمية‘، فلقد دأب الكثيرون من علماء السياسة على التذكير، ومنذ ذلك الحين، بما يحتمله التحذير من واقعية تستحق الإنتباه والتفكير. وفي الوقت الذي يشدد فيه البعض على ما ينتظر ’النظام الرأسمالي العالمي، من أزمة متعلقة بشرعية الدولة[31] Legitimation Crisis، تتواصل لتنتهي بإنهيار النظام بأكمله، ينبّه البعض الآخر من عواقب ما وصلت إليه ’المنظومة السياسية ـ الإقتصادية‘ من هيمنة شاملة على كل ما عرفته الإنسانية من نظم حياتية وإجتماعية، مشددين على خطورة "الرؤية المحدودة" التي تقيَّم على أساسها ’العولمة‘ an ahistoric and uncritical attitude to globalization، وما تتسلح به ’النخب الفكرية المعاصرة‘ من مبررات أيديولوجية في ظل هذا ’الضعف في التمييز‘، مما يساهم في إزالة كل ما يقف أمام طموحات ’قوى الإحتكار‘ من حدود و"شرعيات" وقوانين[32].

ومع العودة إلى ما سأقوم بتفصيله لاحقا مما أشرت إليه في الكتاب السابق[33] في سياق الحديث عن "الأساليب الترقيعية" التي تتعامل فيها قيادات النخبة العاطلة مع ما يتضمنه النظام الرأسمالي[34] من ’أزمات ملازمة‘ كامنة، فإن كل ما يهم صناع القرار من "متسلطي العصر" أن تُصرَف الأنظار عن أي تشخيص منطقي أو حل واقعي للخلل القائم، تثبيتا للفوضى الفكرية وتعطيلا للحلول العملية، ولسهولة ’العمل في الظلام‘، ومن أجل الحفاظ على هيمنتهم على القوة المهيمنة على النظام الدولي.

---

30 .George Soros, Atlantic Monthly, February 1997

31 ما حذر منه العالم والفيلسوف الألماني ’يورغن هابرماس‘ Jurgen Habermas سنة 1975 من ’تناقض متجذر بين واجب الدولة الرأسمالية في تشجيع النمو الإقتصادي، وضرورة توفير الرعاية الإجتماعية Welfare State، حيث تستلزم كل من هاتين المسؤوليتين اتباع مبادئ تنظيمية مختلفة تماما عن الأخرى. إن النجاح في أي من الأمرين سيكون حتما على حساب الآخر‘. وبالتالي، فإنه وبالرغم مما قد يبدو عليه النظام الرأسمالي الحالي من تماسك وقوة، إلاّ أن ’ما ستنتجه الأزمة تدريجيا من تهديد لشرعية الدولة، سيؤدي في النهاية إلى إنهيار النظام بأكمله‘.

32 راجع كتاب The Globalization of World Politics: an introduction to international relations لـ J. Baylis and S. Smith، الطبعة الثانية، NY: Oxford University Press، (2001)، ص. 220-221.

33 راجع "العالم في ظل النظام العالمي الجديد" من كتاب ’منطقة الشرق الأوسط: بوابة للحل أو باب على الجحيم‘.

34 والكلام هنا عن "الرأسمالية الإحتكارية" القائمة على الجشع والإحتيال والتسلط والإستغلال.

لقد "إنهار" الإتحاد السوفياتي، وانتفت بسقوطه "مستلزمات الفزاعة"[35] القابضة على أنفاس وحيوية العمل الفكري العقلاني والمنطقي... ومع "طلوع الفجر الجديد"، وانتهاء ’حالة الطوارئ‘، ظهرت الحقائق وما وصل إليه ’الغرب‘ من أمر واقع، فارتفعت الأصوات والإنتقادات والتحذيرات؛ وما يميز الأمور عن سابقها، أن الأصوات هذه المرة كانت من داخل المنظومة ومن الساحة الداخلية للقوة المهيمنة والنخبة المتسلطة على القرار الدولي! إن ما كان يثار و"بكل واقعية" على أثر إنهيار ’نظام القطبين‘ من "حقائق"، إنما كان يتعلّق بـ "صميم" ما كانت وما زالت تعتمد عليه قوى التسلط من أجل البقاء، ناهيك عما تقتضيه المسألة من معالجات سريعة لا تخلو من المخاطر والمجازفات. وبغض النظر عما تحتمله تصريحات أصحاب ’الحلقة الداخلية‘ من تفسيرات مختلفة أو متعارضة، إلاّ أن في ما يقوله ’جايمس غولدسميث‘ الكثير مما يستحسن على كل المتسلطين أن يتفكروا فيه[36].

أنه لأمر مُدهِش فعلا أن يراقب الإنسان موت حضارة تدمِّر نفسَها بنفسِها، بسبب عجزها عن إعادة النظر في صلاحية ما تقوم عليه هذه الحضارة من ’أيديولوجية إقتصادية‘، في ظروف وأجواء جديدة ومختلفة.[37]

جايمس غولدسميث (شباط/فبراير 1994)

هناك تغيرات إجتماعية وعالمية لا يمكن تجاهلها؛ وإذا ما أثبتت الحروب والإهتزازات الأمنية فعاليتها بالأمس في إحتواء الموقف وترقيع الخلل، فالأمور اليوم أكثر تعقيدا والنتائج غير مضمونة. لقد ظن البعض أن بإمكانه إعادة تركيب الإنسان، وبعد التجربة تبين أنه لا يعرف عن الإنسان شيئا. لا أريد "تبسيط" المسألة هنا، ولكنني لا أريد أن أتجاوز ما أبتغيه من وراء هذه الرسالة أيضا[38]. فما أحاول الإشارة إليه والتشديد عليه، هي الحالة التي آلت إليها ’اللعبة السياسية‘ من "تعديلات" على صعيد ’اللاعبين الأساسيين‘، من دول ومؤسسات شرعية إلى نخب تقيس الأمور على قياسها. وفي الوقت الذي يمكن للكثيرين فيه معرفة قدرهم، هناك من لا يريد الإعتراف بالواقع ولا بالحقيقة، ولأسباب تتخطى المصالح وكل الحسابات المادية. هناك عقلانيون واقعيون في تلك ’الحلقة الداخلية‘، يدركون تماما خطورة ما ينطلق منه زملاءهم في حساباتهم السياسية من خلفيات دينية ’خرافاتية‘[39]. إلاّ أن أصحاب القرار منهم، لا يريدون قبول حقيقة أن الذكاء لم يعد حكرا لفئة دون غيرها من البشر.

---

35 ما كانت تقتضيه ’المصلحة الوطنية‘، في ظل وجود "العدو الواحد" وتحت التهديد، من "تستُّر" أو غض للبصر عن العيوب والمشاكل الداخلية، وكي لا يتهم المرء بالخيانة أو العمالة لما يمكن أن يعرض ’الأمن القومي‘ للخطر.

36 إن في صِحَّة ودِقة ما يقوله العديد ممن يُحسب على هذه الفئة المحتكرة لدليل قاطع أن المسألة لا يمكن أن تقتصر على محاولات الإحتواء أو الإلتفاف على الإنتقادات المتصاعدة، إنما فيها ما يكفي للتأكيد على ما تربى عليه هؤلاء من أنا وجشع وتقديم للمصلحة الخاصة... ولعلها تكون عبرة لمن يعقل ويعتبر من أصحاب الزعامات والتسلط، الإقليميين والمحليين، حتى يراجعوا حساباتهم ويدققوا فيما يتحفهم به من يعتمدون عليهم اليوم من وزراء ومستشارين.

37 Sir James Goldsmith, London Times, February 1994.

38 من المهم جدا أن يقدِّر القارئ حساسية وصعوبة ما أحاول صياغته من نص أريد به رسالة قصيرة ومعبرة إلى كل من ’المعنيِّين‘ وعامة الناس، ليفهمها كلٌّ حسب ’مفرداته‘ وتجاربه، وطبقا لما أبتغيه من تفاعل متفاوت لدى الطرفين.

39 راجع "شعارات مبهمة، وتحالفات جديدة" من كتاب ’منطقة الشرق الأوسط: بوابة للحل أو باب على الجحيم‘. وللمزيد من التوضيح، فقط، أنظر إلى العنوان الذي اختاره ’دايفد فروم‘ لكتابه السابق الذكر عن ’جورج بوش‘، وحاول التفكير في تعبير "الرجل المناسب" وكلمة "مفاجئة" في تقديمه لرئاسة ’بوش‘!

ولنضع الأمور بشكل مبسَّط؛ ولكي نسهِّل على غير المتابعين فهم ما أبتغيه من كل هذه القصة، وما يربط بينها وبين ما نتكلم عنه من تأثيرات للعبة المحاور على الساحة الدولية؛ فلهذه اللعبة جذور تتمثل في ما يحمله النظام الرأسمالي من أزمات متكررة تستلزم وجود "عدو" أو تهديد وحالة أستنفار تبنى على أساسها المحاور، وتصرف في ظلها الأنظار عن العيوب الداخلية وعن الكثير من الحقائق. ولهذه الأزمات أوجه وعناوين متعددة، منها إقتصادية أو مالية، ومنها ما يتعلق بشرعية النظام القائم؛ ولقد "استُعمِلت" الحروب العالمية من قبل، وكلما بلغت الأزمة ذروتها. إلاّ أن المسألة اليوم مختلفة، ولأسباب متعددة، على رأسها ما شهدته ساحات الصراع الفكري الإجتماعي والسياسي العسكري، وعلى مدى العقود الثلاثة الماضية، من "عودة" للعامل الديني، وبزخم غير متوقَّع إلى "المعادلة". وحتى لا أطيل[40]، فإن ما تقام وتُحدَّد على أساسه المحاور اليوم على درجة من الحساسية والخطورة، وما كان بالأمس من مسؤولية الدول والحكومات المنتخبة، صار اليوم رهينة في يد "نخب مستهترة" لا تقيم وزنا لما تقتضيه المصلحة العامة، ولا يعنيها ما قد يتسبب به تطرُّفها من صراعات ومصائب.

لقد كان للدولة دورها في تقرير المصير وتحديد المصلحة العامة والتمييز بين العدو والصديق. إلاّ أن من يحتكر المهمة، ومنذ أواخر السبعينيات، هم مجموعة من ’المتطرفين الصهاينة‘، ومجموعات متفرقة من ’جماعات الضغط‘ المختلفة التوجه والإختصاص، على رأس كل منها صهيوني متطرِّف... والمسألة لم تعد تخفى على أحد. كل من يعمل الآن في أي من المؤسسات الأكاديمية أو الطبية أو القضائية أو الإعلامية أو الإقتصادية أو السياسية، وفي أي من الدول المؤثرة، يعلم ويشهد على ذلك... وإن كانت تقتضي الحاجة بالأمس لكي يتسترَّ هؤلاء خلف ’فزاعة‘ ما يسمى بـ "نظرية المؤامرة"، فلبعض المتشددين من هؤلاء اليوم حسابات "عقائدية" لا يرون معها أي حرج في الإعلان عن هويتهم، وعن حقيقة توجهاتهم[41]... وعلى أساس حساباتهم هذه "تفرَض" التحالفات، ومن دون أي اعتبار للحدود أو الخصوصيات، أو لما حققته الأنظمة الإجتماعية من تقدم حضاري.

لم يكن من المعقول إقناع أو إلزام المجتمعات الغربية أن تتخلى عما جاهدت ودفعت الدماء ومئات الآلاف من الضحايا، لتتخلَّص من الأنظمة ’الأوتوقراطية‘ من حكم ملكي و’دكتاتوريات‘، ومن أجل الحصول على ما وصلت إليه من قيم وحقوق وحريات. وكما ذكرت فيما سبق، كان لا بد من "حدث عظيم ومفاجئ"، يستلزم الإستنفار المباشر و’إعلان حالة الطوارئ‘، بعيداً عن المنطق وعما عهدته الأنظمة الغربية المعاصرة من أساليب متأنيّة ومتعقلة في دراستها وإتخاذها للقرارات. كان لا بد من إسكات "مثيري الشغب" من الأكاديميين والمفكرين العقلاء، وبأساليب غير مسبوقة، ظنا من هؤلاء الحاقدين على الإنسانية، أن بإستطاعتهم "بسط" "مشيئتهم"، عن طريق ممارستهم لهذا "الإرهاب الفكري"... وكان لا بد من جمع كل المرتهنين والمرتزقة من متسلطي وتجار العالم لمواجهة الحدث، وفي ’معركة فاصلة‘، يحتكر فيها النفاق العالمي تمثيل محاور الحرية والإعتدال... إلاّ أن ما يراهن عليه هؤلاء من "طلقة أخيرة"، وبإعتراف ’الواقعيين‘ من زملائهم في دائرة التحكم، لن يكون في مصلحتهم... ولعل في ما يقترفونه الآن من خروقات واعتداءات صارخة على المبادئ، وعلى القوانين والشرائع، بداية لنهايتهم، ولخلاص البشرية مما أعاثوه في الأرض من "شر" وفساد.

---

[40] لقد سبق وتوسَّعت في هذا الموضوع في سياق حديثنا عن "قوى التطرُّف والإرهاب" و"جذور الخلل" في كتاب ’منطقة الشرق الأوسط: بوابة للحل أو باب على الجحيم‘.

[41] وهذا ما دفع بالبعض من "المتعقلين" في صفوفهم للتحذير من مغبة ما يقومون به، كما بينته في بداية الحديث... ولمن يريد المزيد من المعلومات، أن يقرأ قليلا عما يسمى بـ ’الصهيونية المعدَّلة‘ Revisionist Zionism.

انعكاسات وتبعات ’اللعبة‘ على العرب والمسلمين

وعلى أثر تلك التطورات الإنقلابية، التي بلغت ذروتها بتحَصُّن نخب التطرف بـ "وعودٍ إلهية" تنتهي بنا جميعا في أتون حرب عالمية شاملة[42]؛ بما يمكن لتلك "المعركة الفاصلة" Armageddon أن تتسببه من خراب وتدمير للشعوب وللإنجازات الحضارية؛ علت الأصوات للمطالبة بالتعقل، ولتَسلـَّط الأضواء على ساحة الصراع أو المعركة الحقيقية. عندما قُدِّم الإسلام ليحل مكان الشيوعية، وكتهديد بديل، أو "فزاعة" بديلة، لم يكن ذلك بإرادة المجتمعات الغربية، أو طبقا لمصالح مؤسساتها، أنما بتخطيط من تلك ’النخبة العاطلة‘، ولأهداف خاصة بهم وبما "ينتظرونه من وعود" في منطقتنا. ثم "شاء القدر" والتقت المصالح! وفي الوقت المناسب والمكان المناسب... فكان ’الزواج المؤقت‘ بين من كان يبحث عن علاج لأزمة إقتصادية قادمة، وبين "فئة مهووسة" من "متشددين عقائديين" لا يَقِلـُّون وزنا ولا شـأنا... ومن هنا كانت خصوصية منطقة الشرق الأوسط؛ ولتعود "مرة أخرى"، محط أنظار العالم وكل شعوب الأرض، ومنطلقا لتلك ’المعركة الفاصلة‘، أو ’حلبة صراع عالمية‘ لما يسبق المعركة من "فرز وتجاذبات" فكرية وعملية[43].

إن ما كان يقلق العقلانيين أن الكلام عن هذه ’المعركة الفاصلة‘ لم يعد يقتصر على "المتنبئين" أو ’أصحاب الأماني‘ ممن يدَّعي العلمنة من أصحاب المراكز الحساسة، بل في انتقال "الفكرة" لتـُتـَداول بين ’صناع القرار‘ وعلى لسان رؤوس السلطة من متديّنين لا يخفون ما يؤمنون ويشعرون به من "تكليف إلهي" و"اتصال مباشر" مع ’الخالق‘، مما أثار حفيظة البعض من الحلفاء والأصدقاء في ’حلف الراغبين‘، ومن العناصر الفاعلة والأساسية... فللأوروبيين، المعروفين "بقلة تديُّنهم"، حساباتهم ومصالحهم؛ وإن كان احتياج الأمريكيين للنفط من الشرق الأوسط لا يتجاوز الـ % 20، كما يدعون، فالأوروبيون يعتمدون على ما لا يقل عن % 65 من هذه الإمدادات و"لحياتهم اليومية"؛ ومن هنا كانت "الصرخة" من أجل الهدوء، والدعوة من أجل التعقـُّل والبحث عن مخارج سياسية.

كان من المطلوب أولا أن ’يُسحَب الفتيل‘، أو أن يُعطـَّل ’الصاعق المُحَرِّض‘، والمتمثـِّل الآن في ما يسمى بـ ’الصراع العربي الإسرائيلي‘. كان لا بد من ’عملية إحياء‘ لمبادرات السلام، ولكن، مع دراسة مسبقة لأسباب استمرار فشل تلك المفاوضات، ولأن الفشل هذه المرة ستكون له انعكاسات خطيرة و"غير مسبوقة". وعلى هذا الأساس قدِّمت الدراسات والمبادرات، ونوقشت الإقتراحات[44]... إلا أن العقلية المتحجِّرة لهؤلاء المتطرفين كانت وفي كل مرة تحول دون الوصول إلى حلول عملية.

---

[42] وحتى لا يلتبس الأمر على أحد، فالمقصود هنا، هم من سبق وتكلمت عنهم من ’متطرفي الصهاينة‘ ومن أتباع ’زئيف جابوتنسكي‘ Ze’ev Jabotinsky (1880-1940)، ممن يتستـَّرون وراء ما يدَّعونه من ’واقعية سياسية‘، وما يسعون إلى تحقيقه تحت لواء ’الصهيونية السياسية‘ Political Zionism من ’دولة يهودية‘، وكبديل عملي عن ’أرض إسرائيل‘ Eretz Yisrael، تشمل منطقة ’الإنتداب البريطاني على فلسطين‘، بما فيها ’شرق الأردن‘ و’الأراضي الفلسطينية‘، بالإضافة إلى "الحدود الحالية" لـ ’دولة إسرائيل‘.

[43] ولقد تمَّت عملية "الفرز" هذه على الساحتين الإقليمية والمحلية تماما كما تمَّت على الساحة الدولية، في ظل فرضية ’العدو والتهديد القائم‘، والتي على أساسها وفي أجوائها بُنِيَت "المحاور"، وفي ظلها صُرفت الأنظار أيضا عن كل الأولويات وعن الكثير من المصائب الداخلية والحقائق.

[44] راجع ’التقرير‘ CIDCR (April, 2005)، الذي تمت مناقشته مع الجهات الأكاديمية المعنية، ليقدم بعد ذلك، وكورقة عمل ’يبنى عليها‘، إلى بعض السلطات الرسمية المختصة، بما فيها وزارتي الخارجية البريطانية والسعودية.

وكما للساحة الدولية ’نخبتها العاطلة‘، فللساحات الإقليمية والمحلية نخبها التي لا تختلف بحالها عن النخبة الدولية إلاّ بانقساماتها واختلاف مصالحها، وفي انعدام الرؤى الموحَّدة وغياب الأولويات؛ مما كان يساعد، بالأمس القريب، على تمرير الكثير من المعاهدات و"المسرحيات" والإتفاقيات[45]... إلا أن أحدا من قيادات المنطقة اليوم لا يجرؤ على تحمل مسؤولية أية "مبادرة"، دون تعريض نفسه لما قد يفوق ما ناله أسلافه، عندما كان معظم العرب والمسلمين نائمين غافلين ’لا يقرؤون التاريخ‘... ناهيك عما وصلت إليه الشعوب العربية والإسلامية من تقدم نسبي على صعيد ’الآفاق المعرفية‘[46] والإتصالات التكنولوجية التي تنقل الخبر والحدث مباشرة، وإلى كل بيت وإنسان على وجه الأرض. ومن هنا، كانت الضرورة والحاجة إلى التأسيس لتلك "المحاور" الإقليمية والمحلية التي في أجوائها؛ وكما حصل ويحصل على الساحة الدولية؛ يمكن لكل هذه الإعتبارات الواقعية والمنطقية أن تهمَّش، وللمصلحة العامة أن تُغَيَّب، ولتُجَيَّش "الرَّعية" كل في "مزارع خاصة"، على رأس كل مزرعة ’ديك‘[47] من "ديكتاتوريات" التطرُّف والقهر والتسلط، ومن "التجار" المرتهَنين لأعداء الأمة والدين.

ومع العودة إلى قصة الصراع العربي الإسرائيلي، والكل يعرف كم يشوب القصة من تعقيدات لا أريد الخوض في تفاصيلها، لأكتفي بتسليط الأضواء على بعض المراحل المفصلية فيها، والتي، عن طريق ربطها ببعضها، نتوصل إلى ما يعنينا فيما نتكلم هنا عنه. فلقد تطور هذا الصراع المزمن منذ أن "تكرَّمت" المملكة المتحدة والدول الأوروبية (أو ’الغربية‘) من ورائها بإهداء أرض العرب، ’أرض فلسطين‘، لمن كانوا "يودون" التخلص منهم من الشعب اليهودي. ولقد اختلف المفكرون و"الفقهاء" من العرب فيما إذا كان ’الغرب‘ صاحب القرار، أم أن المسألة كانت و"ما زالت" بتدبير من ’الصهيونية العالمية‘، وما يستلزم كل من الإحتمالين من حسابات سياسية وعملية مختلفة[48]. ولقد دفعت الأمة الثمن، والكل يعلم لمن يعود الفضل في هذا الخلاف والإنقسام بين القيادات العربية؛ فالمسألة أكثر وضوحا اليوم، ولعل أمر من كان يتحكم بمجريات الأحداث لم يعد يخفى على أحد... إلا أن قوى ما يسمى بالإستعمار[49]، عندما اضطرت إلى ترك البلاد لـ "تتحرَّر" ويستقل[50] ’العباد‘، عرفت كيف تضمن لنفسها السيطرة والهيمنة، ولتلك الكيانات "المحرَّرة" ألا تتقدم ’في حياتها‘ أبدا.

---

[45] ومن أبرز تلك الإتفاقيات، ما تم توقيعه من قبل كل من رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ’حاييم وايزمن‘ والأمير فيصل بن الحسين قبيل انعقاد مؤتمر ’فرساي‘ للسلام، والتي تعهد فيها الأخير دعم ’التوطين المكثف‘ لليهود في فلسطين مقابل مساعدة الحركة الصهيونية له في التأسيس لـ ’الأمة العربية الكبرى‘!!! هذا النوع من "الإستغباء" لا ينطلي على أي من القيادات والزعامات العربية الحالية... وإن حصل، فمن المستحيل أن تمر المسألة مرور الكرام. (راجع الملف الملحق HM, Part 1, Chapter 4، الصفحة 2)

[46] كم من أصحاب العقول من لا يدرك اليوم حجم "الغباء"، أو فداحة الخطأ، الذي ارتكبه العرب في إعطاء ثقتهم وتسليم أمرهم لـ’لورنس العرب‘، على صعيد المثال وليس الحصر؟ وكم من الناس من لا يدرك اليوم حجم "الخيانة" التي ارتكبها بعض القادة العرب بعد ذلك في حق شعوبهم وفي بيعهم لحقوق العرب!؟

[47] وللترويح عن النفس فقط، أنصح القارئ أن يطلع على، أو يعيد قراءة قصيدة ’في حارتنا ديك‘ للشاعر نزار قباني!

[48] لقد اعتمد عبد الناصر على نظرية أن إسرائيل كانت "مزروعة" ومن قبل الغرب في ’خاصرة العالم العربي‘، طبقا لحسابات ومصالح تلك الدول الغربية، وأنه من الممكن هزيمتها بمجرد عزلها عن مؤيديها على الساحة الدولية. ولقد بنى حساباته على هذه النظرية طوال إحدى عشر سنة، لينتهي به الأمر بهزيمة الـ 1967.

[49] ومن الأولى تسميتها بقوى النهب و"القرصنة" واغتصاب الثروات؛ إذ أن واقع ما قامت به تلك القوى "الغازية"، إنما كان "عمارة" لكياناتهم ولحضارتهم الخاصة، وعلى حساب طاقات وموارد وحقوق ودماء الآخرين.

[50] وأي استقلال كان هذا؟... استقلال عن المحتل!؟ أم لأطراف الأمة عن بعضها، وضمن حدود مصطنعة رسمتها قوى الغزو والتسلط، لما فيه مصلحة خالصة لمطامعها في ’مصادر الثروة‘ ولسياساتها المستقبلية تجاه هذه المنطقة!!

لا أريد التذكير بـ ’زمن الهزائم‘، ولا بـ "الأخطاء المميتة" التي ارتكبتها ’الأنظمة الرسمية‘ وبعض القيادات العربية؛ إلا أن ما جرى في تلك الأيام الغابرة، لا يمكن له أن يتكرر بعد اليوم أبدا... لقد استبشر العرب من قبل بوعود الرئيس ’ولسن‘ عندما أعلن عن ’النظام الجديد للعلاقات الدولية‘ (راجع ’الوثيقة‘ HM, Part 1, Chapter 4، الصفحات 2 - 3)، كما صدَّقوا وسلَّموا بعد ذلك بما وعدهم به البريطانيون من ’حكم ذاتي‘، مستسلمين لما تركته في قلوبهم "تجاوزات" العثمانيين من أحقاد، وليجدوا بعد ذلك أنفسهم مقسَّمين في دويلات و"كيانات غير طبيعية" لم يُستشاروا فيها، ولم تكن لمصالحهم ولا لخصوصياتهم إعتبارا في رسم حدودها!. ثم كانت بينهم المحاور والتحالفات؛ قسم ملكي ’محافظ‘، وقسم تحرُّري تقدمي يريد الخلاص من تلك ’الأنظمة الرجعية‘؛ فعمَّت الكراهية وزادت الخلافات، فكثرت الإنشقاقات وتعاقبت الإنقلابات، فاستنزفت الطاقات وذبح الشعب والوطن.

ولقد دخلت ’شياطين الإنس والجن‘ بين الإخوة، وفي ظل تلك الأجواء المشحونة والمظلمة، ليتلاعب بمشاعر الناس ومصالح الأمة كل من البعيد الحاقد والقريب المتربّص من مقتنصي الفرص. و’يعيد التاريخ نفسه‘، فـ "يُستبدَل العثماني" بأهداف أخرى داخلية وإقليمية، عربية وغير عربية... ومن العراق إلى لبنان، تُهَيّأ الأجواء اللازمة، و"أحداث عظيمة ومفاجئة"، تُبنى على أعقابها الأحقاد، بعيدا عن المنطق والتعقل، وعما عهدته الشعوب العربية من تسامح أو "أخلاقيات في التخاصم"... ولإسكات مثيري الشغب من المفكرين العقلاء أيضا، تُستحدَث العشرات من وسائل "الإعلام الحر"، وتُستنفَر المرتزقة من الكتاب و"المحللين" من ’المرتهنين‘، ومن ’الجائعين على أبواب السلطة‘... فتدخل المنطقة في ما يُخطط لها من أجل استنزافها، من "تحالفات إرتهانية"، وفي ’معركة فاصلة‘، يحتكر فيها التطرُّف وأصحاب المصالح والمشاريع الخاصة، تمثيل محاور التحرر و"الإستقلال".

إن كل ما أريده هنا، أن أقول "الحقيقة"... وبغض النظر عما يمكن لتلك الحقيقة أن تتسبب به من "الم" أو حرج لي أو لأي إنسان آخر... لا أريد الدفاع عن أحد، أو تأييد أي من تلك المحاور، وإنني أقدِّر خصوصيات و"جراح" البعض، وأدرك حجم ما وصلت إليه بعض الأطراف من تطرُّف. إلاّ أن ما أراه من "قباحة" في استغلال المشاعر والشعارات، ومن "استخفاف" بعقول الناس، و"استهتار" بمصالح العامة، إنما يستوجب الآن تدخلا لا تراعى فيه "اللباقة" أو ’الكلام المعسول‘... ومن موقع المتخصص في ’الدبلوماسية الدولية وحل النزاعات‘، العارف بمجريات الأحداث، وللعقلية السياسية والخلفية "الثقافية" التي يتحرَّك على أساسها ’صناع القرار‘ على الساحة الدولية، أقولها وبكل صراحة و"وقاحة"، أن من بيدهم زمام الأمور، سواء على الساحة الدولية أو المحلية، إنما هم "تجار سياسة"، لا يعيشون إلاّ على ما هي عليه شعوبهم من "غيبوبة" أو "موت سريري".

إن ما يقف وراء ما نشهده من حماسة في بناء المحاور، خاصة على الساحة المحلية والإقليمية لمنطقة الشرق الأوسط، إنما يعود إلى ما وصلت إليه محاولات ’إحياء مفاوضات السلام‘ من تعثر، أو طريق مسدود، نتيجة تعنتُت من لا يريد التسليم بحقوق شعوب المنطقة أو حتى بوجودهم "كبشر"! لقد عُرِضَت عليهم كل الحلول المعقولة، وقدِّمت التنازلات، التي كان بعضها أقرب إلى الإستسلام منه إلى ما تستلزمه مطالب الأمن والإستقرار والسلام... وإن من يسايرهم الآن ويسير على دربهم و"طبقا لتوجيهاتهم" في بناء تلك المحاور من بعض قيادات المنطقة، إنما هم على علم ومعرفة دقيقة بتفاصيل ما يبتغيه هؤلاء الحاقدين؛ وأن ما يقوم به المرتهنون من تآمر على أهليهم و’أبناء جلدتهم‘، إنما يفعلونه عن سابق إصرار وتصميم، مدركين مستهترين بما ينتظرهم من حساب على يد شعوبهم عندما يستفيق الأحرار من غفلتهم، وسيستفيقون، ليدفع المتآمرون الثمن؛ ثمنا لم يدفعه من قبلهم أحد.

الحلقة الرابعة

العالم العربي: بين الأنظمة الرسمية و'القوى الشعبية'

هذه الحدود [حدود الدول العربية]، والتي عندما تنظر إلى خريطة منطقة الشرق الأوسط تجدها عبارة عن 'خطوط مستقيمة'، قد تم رسمها من قبل 'مخططين' draftsmen بريطانيين وفرنسيين، جلسوا وأمامهم الخرائط ليخطوا الحدود، مستعينين بـ 'المساطر'! فإذا ما تحرَّكت 'المسطرة' بعفوية، ولسبب من الأسباب، أو لارتجاف في يد الرسام، كانت تتغير مع هذه الحركة الحدود... وهناك قصة مشهورة عن 'القنصل' البريطانية Gertrude Bell التي تولت رسم الحدود العراقية الأردنية... عندما 'استدارت' لتتكلم مع أحد الحاضرين، فإذا بالمسطرة قد انحرفت قليلا عن موضعها، وليكسب الأردنيون مع هذه الحركة العفوية قطعة إضافية لا بأس بها على الأرض.[51]

إفرايم هالِفي (نيسان/أبريل 2005)

تغيُّرات دولية جذرية، ونظام عربي جديد

لقد تغيرت خارطة العالم الجغرافية-السياسية على أثر الحرب العالمية الأولى، بما فيها أوروبا ومنطقة الشرق الأوسط. ولقد كثرت حينذاك المؤتمرات، و"المؤامرات"، أبان الحرب وفيما بعدها؛ وكما ذكرت في الحلقة السابقة، مُرِّرت الإتفاقيات، وكتِبَت "المسرحيات"، وفي ظل 'انعدام التكافؤ' بين قوى ومؤسسات منظمة وعريقة، وبين مجموعة من 'العربان' حديثي العهد بالسياسة الدولية، ومن "الغربان" المغرِّدة في سرب أعداء الأمة؛ ومن 'سايكس بيكو' Sykes-Picot (May 1916) إلى 'وعد بلفور' Balfour Declaration (November 1917)، تتكشف "ملامح الحقيقة"، وليكتشف العرب حجم "الإستغباء" الذي كان يتعامل على أساسه معهم "الأسياد" و"المعلم" الغربي.

وتندلع 'الثورة العراقية الكبرى' في صيف سنة 1920، وبمشاركة فاعلة من كل أبناء المنطقة، 'السُّنة' و'الشيعة'، العرب والأكراد[52]، إنطلاقا من بغداد، وإلى كل من الموصل والنجف وكربلاء، على أثر الفتوى التي أعلن فيها الإمام الشيرازي الجهاد على المحتل البريطاني، مما دعا بالأسياد[53] إلى عقد 'مؤتمر القاهرة' سنة 1921، والذي تم فيه رسم خارطة الشرق الأوسط الذي نعرفه اليوم.

---

[51] راجع نص الخطاب المنشور على موقع Los Angeles World Affairs Council (16 April 2005) تحت عنوان 'رياح التغيير في الشرق الأوسط' Winds of Change in the Middle East لـ 'إفرايم هالفي' Efraim Halevy، مدير مركز الدراسات الإستراتيجية والسياسية في الجامعة العبرية في القدس المحتلة، ومستشار الأمن القومي الإسرائيلي الأسبق، والمدير السابق لوكالة الإستخبارات الإسرائيلية 'الموساد'.

[52] وتجدر الإشارة هنا إلى أن البريطانيين كانوا أول من استعمل الأسلحة الكيماوية، بما فيها 'الفسفور الأبيض'، لضرب القرى الكردية أثناء إخمادهم لثورة الـ 1920.

[53] نسبة إلى اللقب الإنكليزي "Sir"... ولا أقصد بذلك أبدا الأنتقاص من قدر أحد، إنما للتأكيد على ما كان ينظر به المغفلون وبعض المرتهنين من حكام العرب إلى هؤلاء "السادة المحترمين" من تقدير وإجلال لمكانتهم و"جلالتهم"، ولجمالهم و"هيبتهم"، ولمواقفهم و"صدقهم"، ولما يمثلونه من تقدم وتفوق وتميُّز علمي وأخلاقي وحضاري!

لقد انعقد المؤتمر في الثاني عشر من آذار 1921، وبدعوة من 'وزير المستعمرات' البريطاني آنذاك 'ونستن تشيرتشل' Winston Churchill، بحضور أربعين من "الخبراء" ممن أطلق عليهم 'تشيرشل' نفسه لقب أو صفة 'الأربعين حرامي'[54]، وعلى مدى اثني عشر يوما، بعيدا عن الأضواء وبسرية تامة، كان للمحتل في نهاية المؤتمر ما أراده من 'إحتواء' لتلك 'الإنتفاضة العربية العارمة'، وما خطط له وبكل عناية[55]، مما يضمن له إحكام قبضته على كل المنطقة ولفترة زمنية طويلة قادمة.

لم تكن الحسابات الدولية في ذلك الوقت كما هي عليه الآن، فالنفط وما كان لتلك المادة الأولية أن تحققه من 'وزن استراتيجي'، كان ما زال مجرد توقعات وتخمينات لا تزيد أهميتها عما كان يحرص عليه البريطانيون آنذاك من مصالح حيوية قائمة في شبه القارة الهندية على صعيد المثال... إلا أن ما كانت تضمره فعاليات تلك القوى "الإستعمارية" لم يكن غائبا عن حسابات "أهل المغارة"؛ ولقد نجح هؤلاء فعلا في ضمان سيطرتهم وهيمنتهم، ولشعوب تلك المنطقة ألا تتقدم في حياتها أبدا. ومن هنا كان الإستعجال في معالجة الأمر وتحضير الأجواء، فور سقوط 'الإمبراطورية العثمانية'، وقبل أن يستفيق العرب، ليجتمع "العظماء" (أي 'القوى العظمى' المتمثلة آنذاك ببريطانيا وفرنسا)، وليقرر "الحكماء" عملية 'وضع اللمسات الأخيرة على إعادة بناء، أو إعادة صياغة، الشرق الأوسط ... الشرق الأوسط الجديد، كما كان ينبغي له أن يكون'[56].

وقبل الدخول في ما "حيك" في مؤتمر القاهرة مما تم إخفاؤه ولم يصل أو يكشف عن تفاصيله، وبعد مرور ما يقارب التسعين سنة على انعقاده[57]، إلا القليل؛ وقبل الخوض في تفاصيل تلك الحالة التي هي عليها الأنظمة العربية المعاصرة؛ أريد تسليط الأضواء على بعض الأمور والخصوصيات المتعلقة بعقلية و"نفسية" معظم العاملين في دوائر 'صناعة القرار' في العالم الغربي (بشكل عام)، ولتبقى راسخة في أذهاننا وأمام أعيننا كلما نظرنا إلى مشاكلنا ومصائبنا، وكلما فكرنا في ما يمكن أن نصل إليه من حلول عملية لما نحن فيه... وحتى لا أطيل، ألخِّص ذلك بالنقاط الرئيسية الثلاث التالية: ١- ما يسمى بسياسة 'فرق تسد' التي اتبعَتها وما زالت تتبعها 'القوى الغربية'؛ خاصة البريطانيون؛ وبكل ما لتلك السياسة من أشكال وألوان (فرز وتقسيم المنطقة بين أنظمة ملكية وأخرى "جمهورية"، ثم تسليط أطراف كل من الدائرتين على بعضهم البعض). ٢- "تركيز" المعاهد الفكرية والأكاديمية على مفهوم 'العروبة' وخصوصية الشعب المصري، وموقع مصر بين المشرق والمغرب العربي. ٣- لعب المؤسسات الإعلامية على وتر 'المذهبية' وعلى محاورها من أجل ضرب العالم الإسلامي.

---

[54] بالإشارة إلى 'علي بابا (تشيرشل) والأربعين حرامي' (راجع كتاب Churchill's Folly (2005) للمؤرخ Christopher Catherwood؛ وفي ذلك إعتراف صريح لحقيقة ما كان يقوم به آنذاك البريطانيون في "مغارة" Semiramis Hotel في القاهرة، أثناء هذا المؤتمر الذي نتكلم عنه.

[55] لم يكن إهتمام قوى الإحتلال محصورا بما يجري آنذاك في العراق، إنما كانت أعينهم على ما كانت تشهده المنطقة وستشهده من انتفاضات وثورات مماثلة، أنطلاقا من 'الثورة الأولى' في مصر (آذار/مارس 1919)، و'ثورة الريف' في المغرب العربي (1921 – 1926)، إلى ما شهدته الساحة السورية من أحداث دامية (1925 – 1927)، بالإضافة إلى "الهم الأكبر"، الأول والأخير، والمتعلق بالقضية اليهودية أو الصهيونية وما يسمى بـ 'أرض إسرائيل'.

[56] مقتطف من خطاب تحت عنوان 'رياح التغيير في الشرق الأوسط' Winds of Change in the Middle East لـ 'إفرايم هالفي' Efraim Halevy، منشور على موقع Los Angeles World Affairs Council الإلكتروني بتاريخ (16 April 2005).

[57] إشارة إلى ما يسمى 'قاعدة الثلاثين سنة' 30-year Rule المتعلق بـ 'الأرشيف الوطني' National Archives؛ علما أن فترة الحجز على المعلومات هذه، أيضا، يمكن أن تمدد إلى 50 و75، أو حتى 100 سنة، طبقا لحساسيتها... هذا إن كنا نريد أن نسلم بأن كل المعلومات والوثائق الحساسة تسجل وتحفظ في هذا الأرشيف، ومن دون أي إستثناء.

’الشرق الأوسط الجديد‘: الولادة الأولى

بالأمس، طلعت علينا وزيرة الخارجية الأميركية ’غوندوليزا رايس‘ Condoleezza Rice بزي القابلة القانونية، ولتشد على أيدي "الرجال" في الشِدَّة و’حالة المخاض‘ التي تمر فيها "الأمة"، مبشِّرة بولادة[58] وشيكة لنظام جديد لم تعرف بعد ملامحه... ولقد اشتد الألم وطالت ’مرحلة الطلق‘. إلا أن ما سيكون عليه هذا ’الشرق الأوسط الجديد‘ من شكل جغرافي - سياسي و"تركيبة إجتماعية"، و’على أغلب الظن‘، لن يكون كما يروّج له ويتمناه الإحتكاريون والمتطرفون من أصحاب القرار، ومن يراهن أو يتأمّل بهؤلاء اليوم خيرا من متعاونين أو معجبين محليين... فلهذا المولود "أخ أكبر" يمكننا الآن التأمل والتفكر في حاله، ولعلنا نستطيع عن طريق مراجعة ما رافق تلك "الولادة الأولى" من حالة لم تعد اليوم قائمة، أن نجيب على ’السؤال الذي يطرح نفسه‘، ’إن كان بالإمكان المحافظة على الوضع الراهن في ظل ما تشهده المنطقة من رياح عاصفة لم تشهدها من قبل‘[59]، مستذكرين ما قاله ’هالفي‘ في خطاب ’رياح التغيير‘: ’إن ما جرى على مدى العقدين الماضيين يطرح الآن الكثير من التساؤلات حول شرعية ما تم الإتفاق عليه في مؤتمر القاهرة هذا‘، وإذا ما كان بالإمكان المحافظة على تلك ’الصناديق‘[60]، وبنفس الطريقة و"المنطق" التي رُسِمت ويمكن أن ترسم اليوم به.

لعلنا نحتاج إلى تفصيل ما سبق سقوط ’الإمبراطورية العثمانية‘ من أحداث وتطورات سياسية، وإصلاحات تنظيمية أساسية... ولعلنا نحتاج إلى إعادة كتابة التاريخ، وبطريقة متجردة نزيهة وأمينة، تبرز حقيقة ما جعل من أمر "إسقاط" تلك القوة الإقليمية والعالمية ضرورة عند جميع منافسيها[61]... إلاّ أن ما سبق مرحلة الإصلاح[62] هذه من تجاوزات "غير معقولة"، ومن ظلم وفساد وانحراف عام، وعلى يد بعض ’الباشاوات‘ والولاة، قد ترك، وعلى ما يبدو، في نفوس العرب ما يكفي لدفع البعض للتمادي والغرق في "الأحقاد" و"نشوة الإنتقام"، محللين لأنفسهم الأستعانة في ذلك... ولو بالشياطين.

---

[58] يظهر أن الشرق الأوسط الجديد الذي يتحدثون عن ولادته، هو مولود يريدون التلاعب بجيناته كما عهدوا وتعودوا على التلاعب بجينات الخلق، ولتتوافق مواصفات المولود الجديد مع رغبات ومصالح الإحتكاريين من صناع القرار. ويبدو أن المعركة القادمة ستكون حول مسألة السماح لهم أو منعهم من تحقيق مآربهم. فإما أن يكون المولود الجديد منتج GMME (Genetically Modified Middle East)، مع ما قد يحتاجه الأمر من "عملية قيصرية" دموية، وإما أن يكون منتج OME (Organic Middle East)، فيترك لتكون ولادته ولادة طبيعية وسلمية ترضي الجميع.

[59] مقاطع من خطاب ’رياح التغيير في الشرق الأوسط‘ لـ ’إفرايم هالفي‘ (16 April 2005).

[60] أي تلك "المربعات" الجغرافية - السياسية ذات ’الحدود المستقيمة‘ لبعض الدول العربية.

[61] ومع أهمية المسألة، إلاّ أنني أذكر نفسي والقارئ بما أبتغيه من إبراز لتلك المراحل المفصلية من التاريخ السياسي؛ أن أربط بينها بحثا عن جذور الخلل أولا، ومن أجل توضيح ما تم إخفاء حقيقته أو تشويهه، مما إذا ما أمكن "جمعه"، وعرض ما يمكن إعادة تشكيله من "صورة شبه متكاملة" لما جرى ويجري من ’وراء الكواليس‘، لعلنا ننتقل بذلك إلى ’موقع معرفي‘ أفضل، يساعدنا على فهم حقيقة حاضرنا، وحسن تحديد مصالحنا، فيرتفع بنا إلى ’مستوى القرار‘ أو التأثير في صياغة مستقبلنا السياسي. أما بالنسبة لإعادة كتابة تاريخ المنطقة، فإنني أرى في ذلك اليوم حاجة ماسة، وللمفكرين الإصلاحيين قبل عامة الناس؛ كما أعتبرها من أولويات العمل النهضوي، والتي يجب أن يتولاها "العقلاء" من هؤلاء ’الفقهاء‘ المتخصصين في مجال التاريخ أو ’التاريخ السياسي‘.

[62] ما يعرف بمرحلة ’التنظيمات‘، والتي امتدَّت من سنة 1839 وإلى ما قبل سقوط ’الإمبراطورية‘ وبفترة قصيرة؛ ’إصلاحات جذرية‘ طالت جميع المرافق والبنى التحتية للنظام العثماني آنذاك، بما فيها الجيش، والسلطات الإدارية، والمحاكم، والأنظمة المالية والإقتصادية، والعمل والمواصلات، والإتصالات، والتعليم والفنون... (راجع الكتاب History of the Ottoman Empire and Modern Turkey لـ Shaw,S. and Shaw, E.K.، (1978)، (Cambridge, Cambridge University Press).

هكذا، ويجد "السيد" البريطاني ضالته، وفي من ينتسب لآل بيت رسول الله، وللأسف الشديد... وتبدأ المفاوضات بين السيد 'هنري ماكماهون' Henry McMahon و'الشريف' حسين بن علي، تحضيرا للثورة العربية على الحكم العثماني؛ ومن المحزن و'مهزلة التاريخ'، أنه وفي نفس الوقت الذي كان يتفاوض فيه البريطانيون مع 'الهاشميين' في القاهرة (July 1915 - March 1916)، كانت وزارتي الخارجية البريطانية والفرنسية تتفقان على تقسيم "التركة" العثمانية، لتوقع الإتفاقية[63] في 4 شباط / فبراير 1916، وبخلاف ما كان يقطعه البريطانيون لـ 'شريف مكة' آنذاك من وعود. ثم، وبالرغم من معرفة الشريف حسين بن علي واطلاعه على ما تم الإتفاق عليه من وراء ظهره، على أثر نشر قيادة الثورة 'البولشفية' Bolsheviks سنة 1918 لتفاصيل جميع الإتفاقيات السرية في زمن الحكومة 'التسارية' Tsarist Government... وفي الوقت التي كانت فيه الثورة العربية في أوج ذروتها، إلا أنه أصر على متابعة الطريق.

نعم، لقد ارتكب العثمانيون، وعلى مدى حكم 400 سنة، ما ارتكبته بعض الجيوش العربية بالعرب من بعدهم؛ وكأي جيش عسكري تُنقل وحداته إلى أي أرض أجنبية، فمن الطبيعي أن ترى الكثير من التجاوزات والإعتداءات... ويكفي أن نتذكر ما فعله الجيش الأميركي "المتحضِّر" بالأمس في أفغانستان والعراق، و"وحدات الأمم المتحدة" من الكنديين والبلجيكيين والإيطاليين "المسالمين" من قبلهم في الصومال، من أعمال وحشية حيوانية، من إجبار لبعض المدنيين على أكل 'قيئهم'! وعمليات اغتصاب للنساء و"للقاصرين"!! و"شوي" لأحد الأطفال الصوماليين حيا على النار[64]!!! لا أقول ذلك دفاعا عن همجية بعض العرب، أو تبريرا لما ارتكبته معظم الأجهزة المخابراتية العربية من إجرام وقتل وتنكيل بالمواطنين... إنما توضيحا لأولويات المعركة، وإشارة إلى 'الرأس المدبر'، وحتى لا تتكرر تجربة 'العائلة الحاكمة' ولؤأكد على أن ما تم إسكات أو إرضاء[65] الملوك به حينذاك لا يمكن تكريره او تمريره، فالأجواء والحسابات والنتائج اليوم مختلفة عما كانت عليه من ذي قبل.

نعم، لقد نجح الفرنسيون، والبريطانيون على رأس قوى "الإستعمار"، في 'مؤتمر القاهرة' (1921) في احتواء 'ردة فعل' الشعوب العربية، وفي تحديد معالم الحياة و'قواعد اللعبة' السياسية لكيانات ما تم إنشاؤه حينذاك من 'شرق أوسط جديد'، ولسنين طويلة قادمة. ولقد حصل "الزعماء" على ما يرضيهم من ممالك ورعية... ولكن على حساب القضية القومية ومصالح الشعوب العربية... وعلى حساب تقسيم الأمة في "صناديق هزيلة" متفرقة ومتناحرة، ولتُختَزل الآمال والطموحات، وتُمسَخ الأهداف والتحديات وكل شعارات التحرُّر والإستقلال... وعلى حساب توقيع الإتفاقيات وإعطاء الشهادات لقوى الإستغلال في تحديد المسارات والآفاق العامة و"الهموم الخاصة"، والتأسيس لما يمكن أن يستفاد منه لاحقا من 'بؤر توتر' وحزازيات محلية... وعلى حساب شق الأمة بين شرقية وغربية، و"قتل الصحوة"، ومن أجل الإنفراد في نهب ثروات البلاد.

---

63 إتفاقية 'سايكس بيكو'.

64 بالإمكان مشاهدة العديد من الصور 'الفوتوغرافية' المخيفة لكل هذه الأحداث، والإطلاع على تفاصيل ما جرى على أيدي قوات الأمم المتحدة في الصومال، سنة 1993، في أرشيف معظم وكالات الأنباء (راجع الملحق رقم 1A).

65 تخلي الحسين وأبنائه من بعده عن كل الشعارات والأهداف العامة، والإكتفاء ببعض المصالح الخاصة... وبالإشارة إلى 'الخمسة آلاف جنيه' التي خصَّصها تشيرشل في لقاء القدس لعبد الله الأول، مؤسس 'المملكة الأردنية الهاشمية'، مقابل تخليه عما أتى من الحجاز من أجله، ولقاء 'محاصرته لكل الأعمال المعادية للفرنسيين وللصهيونية' آنذاك. راجع كتاب International Relations of the Middle East لـ Louise Fawcett (ed)، NY: Oxford، Oxford University Press (2005)، ص.29.

الأنظمة العربية المعاصرة، والطريق المسدود

وبغض النظر عن كل ما يمكن أن تُنتقد عليه، فلقد أثبتت الأنظمة العربية "جدارتها" في المحافظة على إستمراريتها، وفي تعطيلها لكل من الثورة الإسلامية والديمقراطية على حد سواء. ولكن، هل يمكن لتلك الحالة أن تستمر؟ لقد حافظت الأنظمة العربية على إستقرارها طوال العقود الماضية، إلاّ أن في ما تعرضت له تلك الأنظمة خلال فترة الخمسينيات والستينيات من إنقلابات عسكرية وصراعات مختلفة، وما شهدناه من سقوط مفاجئ للإتحاد السوفياتي بعد تلك السنوات الطويلة من الإستقرار والإزدهار، ما يكفي لترجيح واقع هشاشة حالة الإستقرار في العالم العربي، واحتمال وصول تلك الأنظمة القمعية قريبا إلى نهايات جذرية مفاجئة... وما يعنينا من كل هذا، أنه وفي الوقت الذي يُرجَّح فيه بقاء الأنظمة القائمة في العالم العربي، فالتغيير لا محال قادم، وأنه عندما يأتي، فسيكون تغييرا مفاجئا ودراماتيكيا.[66]

مارك كاتز (شباط/فبراير 2008)

ويشيع خبر موت الأمة بعد ’الولادة القيصرية الأولى‘، وليُـتـَّفق على وضع ’المولود الجديد‘ تحت وصاية أصحاب العقول وفي رعاية ’الأم الحنون‘؛ ومن العراق إلى أقصى المغرب العربي، يُكتَب لتلك الكيانات الجديدة أن "تترعرع"، وعلى شكل ’محميات‘[67] فرنسية وبريطانية خالصة[68]، ولتبقى على حالها هذا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. ثم ينقلب الزمن على "العظماء" بعد ذلك، وتخرج الأمة، أو الشعوب العربية المقسَّمة، من تحت ’نير الإنتداب‘، أو "الإستعمار المباشر"، ولتقع ثانية في قبضة ما أفرزته الساحة الدولية الجديدة آنذاك من بديل أو بدائل[69] قادرة على التنصُّل من تاريخ أسلافها[70]، متبرئين من الأحقاد والدماء وكل المطامع الإستعمارية السابقة! و’بكل بساطة‘، يتناوب الشرق والغرب على استغلال و"استهبال" الحكام والشعوب العربية؛ وبين ’النظرة الجديدة‘ لمفهوم الحداثة وما يعرضه ’الشريك الأكبر‘ من مساعدات وخدمات مجانية لمن يريد من "الصغار" الدخول في عضوية ’العالم الحر‘ بزعامة الولايات المتحدة، وبين ’مجتمع المساواة والدولة الراعية‘ تضيع الأمة العربية، ولتنصرف بعد ذلك، أو "تـُصرَف"، مجددا عن كل قضاياها الرئيسية والقومية.

---

66 Mark N. Katz, “The Future of the Arab World”, <u>Middle East Times</u>, 27 February 2008. *(Dr. M. Katz is a professor of government and politics at George Mason University USA)*

67 التعبير الذي استعمله مدير مركز الشرق الأوسط في جامعة أوكسفرد Eugene Rogan في وصفه للدول العربية بعد الحرب العالمية الأولى (راجع The Emergence of the Middle East into the Modern State System لـ E. Rogan، في كتاب *International Relations of the Middle East* لـ L. Fawcett، الصفحة 29)، بالإشارة إلى ما يحتمله التعبير من مقاصد الهيمنة (إبقاء المنطقة على حالها من الجهل والتخلف)، ومن إهانة مبطنة لشأن وقدر السكان المحليين (تشبيههم بالحيوانات).

68 باستثناء إيران (على أثر الإنقلاب الذي قام به رضا خان سنة 1921، وأدى إلى قيام ’النظام البهلوي‘)، وتركيا (لاحقا ’الجمهورية التركية‘، التي أنشأها ’أتاتورك‘ بعد فترة ’حرب الإستقلال‘ 1921-1922)، والجزيرة العربية (لاحقا ’المملكة العربية السعودية‘، التي أنشأها وأسس لها الملك عبد العزيز آل سعود على أثر نجاحه في توحيد البلاد من ’الخليج الفارسي‘ وإلى منطقة الحجاز على البحر الأحمر سنة 1924).

69 الولايات المتحدة الأميركية والإتحاد السوفياتي.

70 البريطانيون والفرنسيون.

ويتابع ’هالفي‘ استهزاءه بهذا الواقع العربي، وبتلك ’الحالة الإستثنائية‘ التي تسمى فيها البلاد بإسم العائلة الحاكمة[71]، مُبَيِّنا أن ما كان وراء خيار إنشاء الأنظمة الملكية أو الأنظمة الجمهورية في هذه المنطقة أو تلك، لم يكن طبقا لمتطلبات الحالة الإجتماعية المحلية، إنما لمجرد التقليد والإلتزام بتقاليد تلك الدول المستعمِرة[72]... وليعود في نهاية المطاف، وكعادة ودأب زملائه في كتلة التطرف، لينبِّه العالم من تلك ’القوة المتصاعدة للعامل الديني‘ في نفوس وفي قلوب وعقول سكان المنطقة، ومما لهذا الدين من ’تأثيرات قوية على الأحداث، تتعدى الحدود أو الهوية الوطنية‘ للشعب العربي.

هناك مخاطر محدقة، أو علامات واضحة لإنفجارات قادمة، متمثلة في ما وصل إليه العرب من يأس و"كفر" بكل المبادرات، وبمحاولات الإصلاح، الصادقة منها و"الكاذبة" على حد سواء، في ظل ما عاشته الشعوب وما زالت تعيشه من ظلم و"كبت" على يد الحكام وأدوات الأنظمة القائمة. وكما يبينه ’دايفد هيرست‘ David Hirst (2003)، ’فاليأس يولد القناعة والقبول بـ "أي شيء" يؤدي إلى زعزعة الأسس التي تقوم عليها الأنظمة العربية، حتى ولو كان ذلك عن طريق حرب يقودها من هو معروف بولائه المطلق لإسرائيل، وبعدائه وحقده الخالص على كل الشعب العربي‘[73].

هناك ’دول ريعية‘[74] Rentier States تمثل جزءا أساسيا من العالم العربي، وبما تحتمله أنظمتها الإقتصادية من خلل كامن نتيجة فقدان الركائز الأساسية لمؤسسة الدولة مما يعرف بنظام ’التمثيل مقابل الضرائب‘ Taxations v Representations وما يسمى بـ’سببية الأجر والعمل‘ Work-Reward Causation، وما يستتبع ذلك من ’عقلية ريعية‘[75]، بالإضافة إلى انعدام البدائل على صعيد ’الناتج المحلي‘، مما يستلزم بقاء ’الأنظمة الفاشستية‘[76] Authoritarian Regimes، ويتهدد حياة ومستقبل الناس ومصير الوطن[77]، ويضع البلاد والنظام بأكمله "تحت رحمة القدر"[78].

---

71 نسبة إلى المملكة العربية السعودية، وبالإشارة إلى الإهتمام الخاص و"الغريب" الذي توليه المؤسسات الأكاديمية والمحللون الغربيون اليوم للملكة، ومنذ فترة غير طويلة، في ظل تجاهلهم لحال وعيوب معظم الدول العربية الأخرى.

72 أي أن السبب الوحيد من وراء اختيار الأنظمة الملكية في كل من العراق والأردن كان لكون بريطانيا ’مملكة‘! وبما أن النظام في فرنسا كان جمهوريا، كان بالتالي على النظام في كل من سورية ولبنان أن يكون على ما كان عليه!

73 راجع مقالة "Arab States paralysed by fear of their people and the US" لـ David Hirst، على الموقع الإلكتروني *Guardian.co.uk* (1 March 2003). ولعل ما جرى في لبنان مع منظمة التحرير أبان الإجتياح الإسرائيلي سنة 1982، وما جرى بعد ذلك في العراق مع صدام حسين ما يستحق الكثير من التأمل والتفكير.

74 ’الدولة الريعية‘ هي الدولة التي يقتصر ’دخلها القومي‘ – أو يعتمد، وبشكل أساسي أو شبه كلي – على ريع الثروة أو الثروات المحلية؛ أي على مردود بيع أو إيجار تلك الثروة إلى أي طرف خارجي.

75 راجع فصل The Rentier State in the Arab World لـ Hazem Beblawi في كتاب *The Arab State* لـ Luciani, G.، London, Routledge, 1990، الصفحة 85. (راجع الملحق رقم 3، والملحق رقم 3A).

76 النظام الذي يُخضع فيه الفرد وحقوقه إخضاعا كاملا لمصلحة الدولة. والكلام هنا لا يقتصر على الأنظمة الريعية، إنما يشمل كل الأنظمة ’الأوتوقراطية‘ المحلية وعلى الطرف الآخر من المنطقة (المغرب العربي)، ممن يتولى مسؤولية ’ضبط الشارع‘، و’ضبط الإيقاع‘ الذي يتم على أساسه "الإيقاع" بـ ’الخزان الشعبي‘ لهذا العالم العربي.

77 والكلام هنا عن كل من ليبيا وقطر والإمارات والكويت والعراق، بالإضافة إلى المملكة العربية السعودية.

78 من السذاجة أن ينظر الإنسان إلى ما يبدو على وجه "المحيطات العربية" من "هدوء نسبي"، فينكر أو يتجاهل ما يجري تحت سطح الماء من غليان و"حقد" دفين على الحالة القائمة ومن يقف وراءها من أنظمة ومتسلطين... وأذكر مرة أخرى بما قاله ’لاو تسو‘ أن أسوأ وأخطر ما يمكن أن يصير إليه القائد والزعيم عندما يصبح وجوده مكروه من قبل الناس من حوله... وبما علق عليه ’جوزيف ناي‘ بعد ذلك من إمكانية تأييده لماكيافيللي في تقديمه لمصلحة ’مخافة القائد‘ على ’محبته‘، مذكرا ومنبها إلى أن ما يقابل المحبة هو ’الكراهية‘ وليس الخوف.

قلب الأمة العربية: بين ’المشرق العربي‘ و’المغرب العربي‘

لم يكن للحسابات "المادية" مكانها أو أولويتها في تقسيم منطقة ما كان يسمى بـ ’بلاد الشام‘، ومن البداية في ’بلاد ما بين النهرين‘. إلا أن الأمر كان مختلفا بعد ذلك وعلى أثر إكتشاف النفط، والذي كان له دوره الأساسي في تثبيت، بل في "وجود" بعض الأنظمة في منطقة الجزيرة العربية، بدءا من العراق فالكويت وإلى إمارات و"مشيخات" منطقة ’الخليج‘. فلقد كانت أنظار البريطانيين، في بداية الأمر، موجَّهة إلى منطقة كركوك وجنوب ’بلاد فارس‘؛ ما فتح الباب أمام ’الأميركيين‘ للدخول لاحقا وعلى يد شركة Standard Oil of California (SOCAL) إلى الجزيرة العربية، من أجل دعم وتثبيت دعائم النظام في المملكة العربية السعودية، ضمانا لحصَّتهم ومصالحهم لاحقا، ولمتطلبات ما كانوا يسعون إليه من "هيمنة" عن طريق احتكارهم لمصادر الثروة على هذه الأرض. وليس من المبالغة، كما يقول ’جياكومو لوشياني‘ Giacomo Luciani، إعتبار ’النفط في المنطقة‘ على أنه ’كان وراء تثبيت أو توحيد، وفي بعض الأحيان "ظهور"، دول مستقلة – ما كانت لتبقى إلى يومنا هذا – إلى جانب تلك الدول صاحبة الجذور التاريخية كمصر – في المقام الأول – والدول التي كانت واقعة تحت النفوذ الفرنسي: المغرب والجزائر وتونس، بالإضافة إلى سوريا ولبنان‘[79].

وما يعنينا من هذا الأمر في سياق حديثنا عما كانت وآلت إليه التركيبة الجديدة للعالم العربي، ما ساهمت به تلك ’النعمة‘ من "نقمة" على ’حالة الوحدة‘ بين العرب. هؤلاء الذين كانوا ’خير أمة‘، كانوا قبل ذلك ’أعرابا‘ وقبائل متناحرة، فأتى الإسلام ليوحد بينهم ولينتقل بهم بقوة وحدتهم وبإيمانهم إلى مستوى التحدي بين ’الحضارات‘... ومن هنا كانت الحاجة من أجل إعادتهم إلى ما كانوا عليه. كان من الممكن الإستفادة من النفط وكنعمة متَمِّمة؛ إلا أن أعداء الأمة قد نجحوا في تحويله إلى نقمة، ترفع "سواد النفط" في نفوس أصحاب النعمة فوق نور الخالق، فتُقام الأنظمة من أجل "الحراسة"[80]، وتُقسَّم الأمة بين "كيانات" ميسورة و’خزانات شعبية‘ معدومة على الطرف الآخر من العالم العربي.

عندما ينظر الحكماء وصناع القرار في الغرب إلى هذا ’العالم العربي‘، فهم ينظرون وبعناية إلى هذه ’الوحدة الجغرافية-الثقافية‘ Geo-cultural Unit الممتدة على مدى "ثلاثة عشر مليون" من الكيلومترات المربعة وفي "وسط الأرض"، محاطة بالبحار وبالمياه الإستراتيجية ومن كل جنب! ومن هنا تأتي "الأولوية" التي يعطيها هؤلاء لقضية ’العروبة‘، ولما يجمع بين شعوب تلك المنطقة من لغة واحدة ودين... هناك تركيز غريب في معظم الدوائر الأكاديمية الغربية، وعند صناع القرار، على مسألة ’تحديد مفهوم ومعالم العالم العربي‘، وما يحتويه هذا المجتمع من ’شعوب غير عربية ... من سكان أصليين يعود تاريخهم إلى ما قبل وصول "العرب" من الجزيرة في زمن الفتح الإسلامي‘. هناك ’إستياء كبير لدى هؤلاء السكان الأصليين‘؛ وكما يؤكد عليه العديد من الباحثين والأكاديميين؛ مما يرونه من ’تهميش لحقوقهم الوطنية والسياسية‘، و’فرض من قبل الحكومات للهوية العربية‘... وإن أكثر ما يثير الدهشة و"الريبة" هنا، ما يتم التركيز عليه في هذه الحالة على ’الشعب المصري‘.

---

[79] راجع "Oil and Political Economy in the International Relations of the Middle East" لـ G. Luciani، في كتاب *International Relations of the Middle East* لـ L. Fawcett، الصفحة 85.

[80] وتجدر الأشارة هنا إلى أن ما كان يبتغيه البريطانيون أولا من وراء دعمهم لإستقلال مشيخات وإمارات الخليج، وبالإضافة إلى ’تأمين أفضل الأسعار‘ عن طريق ’المنافسة بين مختلف المصادر‘، كان من أجل ’تفتيت المنطقة‘، و’إيقاف التمدُّد السعودي باتجاه الشمال نحو العراق، وإلى الشرق نحو الإمارات الخليجية‘ (راجع المرجع السابق).

’لقد حكم البريطانيون مصر منذ سنة 1882، وحتى قيام الثورة في 23 تموز/ يوليو 1952، لم يكن لدى المصريين اهتمام بشعارات العروبة، والكثيرون منهم ينكرون أي علاقة لهم بالعرب‘. هذا ما كان وما زال المعنيون من البريطانيين، ومن المتخصصين الغربيين، يعتقدونه ويروِّجون له، مستشهدين بما قاله القائد الوطني المصري سعد زغلول للموفدين العرب إلى فرساي في سنة 1918، ’مؤكدا على استقلالية المطالب المصرية، وأن مشكلة مصر هي مشكلة مصرية لا تخص العرب‘[81]. ولعلنا نستوضح الأمر أكثر عندما نتمعن في ما يقوله المؤرخ ’دايتون‘ من جامعة أكسفورد فيما يلي:

المصريون ليسوا بعرب، وهم والعرب على معرفة جيدة بذلك. هم يتكلمون العربية، وهم مسلمون – ومن المؤكد أن للدين دورا عظيما في حياتهم اليومية، يفوق ما هو عليه عند السوريين والعراقيين. ولكن المصري، وخلال أول ثلاثين سنة من القرن العشرين، لم يكن يشعر بأي علاقة خاصة مع الشرق العربي... ما تراه مصر في القضية العربية، هو فرصة عظيمة ومناسبة من أجل ممارسة دور القيادة، بالإضافة إلى ما يمكن قطفه من وراء تلك القضية من ثمار. إلا أن المصري يبقى مصريا أولا، وعربيا بشكل ثانوي، لا تتعدى اهتماماته قضاياه الخاصة أو الشأن المحلي.[82]

دايتون (تشرين الأول/أكتوبر 1946)

’لقد كانت مصر أمة مستقلة بحالها قبل البريطانيين وقبل مجيء العرب؛ لها أصلها وتاريخها المتمثل أولا بحضارتها الفرعونية المميزة، وثقافتها الخاصة ولغتها القبطية بعد ذلك؛ كما هو الحال بالنسبة لكيانها الجغرافي المتماسك وعلى مدى العصور الطويلة الماضية‘. وهذا ما يؤكد عليه اليوم "المثقفون" وبعض "الفنانين"، وبإيعاز من أصحاب السلطة والسطوة، بدءا من "المعلم" طه حسين، وإلى المئات من بعده من أمثال الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار المصرية الدكتور زاهي حواس، والكاتب الشهير أسامة أنور عكاشة، وغيرهم الكثير... هنا تبدأ المشكلة، ومن هنا تبدأ "الحكاية"؛ فالفكرة لم تعد مجرد ’وساوس‘ على أفواه أصحاب الفتنة من "شياطين الغرب"، ولكنها انتقلت اليوم إلى عقول أصحاب الفكر من المصريين، وإلى قلوب الملايين من "الغلابة" (كما تسمَّى به العامة)، عن طريق المؤسسات الإعلامية الموتورة والمأجورة، وعلى لسان بعض "المهرجين" المشاغبين[83].

وتخرج مصر بعد ذلك من "المعادلة"، ويُسرَق بخروجها قلب الأمة... مصر الثمانين مليون، مصر الكثافة والثقافة، والواصلة الفاصلة بين المشرق والمغرب العربي... ومن هنا كانت الإنطلاقة في ضرب الصحوة وقتل النخوة، كما أسقطت من قبل شعارات ’القومية العربية‘ ومشاريع الوحدة... ومن هنا كان التشديد على ’حيادية مصر‘ وخصوصية مصر و"عدم التدخل في شؤون الآخرين"[84].

---

[81] راجع Pan-Arabism: What Destroyed the Ideology of Arab Nationalism لـ I. Makropoulou، Hellenic Centre for European Studies, (15 January 2007).

[82] راجع The Arab Middle East and the Modern World لـ H. S. Deighton، International Affairs، vol. 22, no. 4 (October 1946), p. 519.

[83] بالإشارة إلى ’مدرسة المشاغبين‘ وإلى عادل إمام، والذي كان من الأولى له أن يبقى ضمن دائرة العمل الكوميدي.

[84] وأتساءل إن كان من مصلحة مصر أن تقتصِر اهتماماتها، أو أن تُختزَل مكانتها وسيادتها بالأمن القومي المصري، في زمن لم نعد نسمع فيه عن الأمن القومي البريطاني أو الفرنسي، على صعيد المثال، بل "الأمن القومي الأوروبي".

’القوى الشعبية‘: بين القوميين والإسلاميين

عندما نتكلم عن ’القوى الشعبية‘ في أيامنا هذه، فالكلام موجَّه أو محصور بالحركة الإسلامية، أو الحركات الإسلامية بشكل عام. وعندما نتكلم عن القوميين، أو ’القومية العربية‘، فالمقصود هم هؤلاء الذين ثاروا ضد قوى الإستعمار البريطاني والفرنسي، وضد تقسيم تلك القوى ’الإمبريالية‘ للبلاد العربية من ’بلاد ما بين النهرين‘ وإلى أقصى المغرب العربي... هناك خلط واضح ومتعمَّد من قبل المؤرخين الغربيين وبعض ’المؤرخين القوميين‘ بين مفهوم وحركة تلك الإنتفاضة الشعبية وبين ما قامت به بعض "النخب العربية" في مصر وفي بلاد الشام من تحركات ضد الحكم العثماني. وفي الوقت الذي نرى فيه الكثير من علامات الإستفهام حول صدقية وخلفية رموز تلك النخبة المثقفة ذات التركيبة الواحدة والمشرب الواحد[85]، فمن الإجحاف التشكيك بنوايا ونظافة معظم قيادات الثورة، أو الثورات العربية، وبتضحيات الملايين ممن سار على دربهم من المخلصين من "شرفاء الأمة" ومن أصحاب الكرم والكرامة وعلى مدى هذا العالم العربي.

لقد كانت أعين المتربصين من الداخل، ومن البداية، على كل ما يمكن تتبعه في ’شركاء الدم‘ وأصحاب الأرض من سقطات وتجاوزات؛ حتى ولو اضطرهم الأمر إلى فبركة أو افتعال الأحداث، كما كنا وما زلنا نراه في كل مكان وزمان... ولقد كان البريطانيون من أبرز الداعمين لـ ’العروبة‘، ولفكرة ’القومية العربية‘ آنذاك، وكسلاح داخلي في حربهم على العثمانيين... وتحت شعار النهضة، ونداء ’تنبهوا واستفيقوا أيها العرب‘، يتم التخلص من الظلم؛ ولتحل مكانه ’الديمقراطية التحررية‘! وليكتشف بعد ذلك المغفلون والعملاء على حد سواء، ومن خلفهم الرعية "المضروب على رأسها"، حقيقة ما كانت تعنيه هذه الحرية، وحقيقة ما كان يراد من وراء تحالف الضعفاء مع القوى العظمى؛ حقيقة مرة، تصفها لنا من يعود لها فضل ولادة وصناعة ورسم الحدود الحالية لدولنا العربية بما يلي:

> *ما قيمة هذه الجمعيات العربية، والمناشير التحريضية التي تنشرها من المطابع الأجنبية؟ الجواب سهل: لا قيمة لها على الإطلاق... لا يوجد هناك أي أمة عربية؛ فما يميّز ويفرّق بين التاجر السوري عن البدو [في الجزيرة العربية] أكبر مما يفرّق بينه وبين العثماني. وسكان البلاد السورية هم عبارة عن أجناس مختلفة ناطقة باللغة العربية، إلا أنهم جميعا تواقون للإنقضاض على بعضهم البعض، لا يمنعهم من تحقيق رغباتهم الحيوانية هذه سوى ذلك الجندي الجائع الهزيل الذي يشحذ أجره وقوت عيشه من السلطان العثماني.*[86]

---

[85] هناك أكثر من علامة استفهام – بل علامات تعجب و"استهجان" – حول هذه "المصادفة": كون معظم "أدباء" ومنظري تلك الحركة القومية الأولى ومن تبعهم من ’مناضلين وطنيين‘، من ’الأقليات الدينية‘ ومن أصحاب الغايات ممن يجيد اقتناص الفرص، وممن لم يكن بعيدا عن لعبة التشتيت والتشكيك في الهوية المشتركة لبعض أطراف الأمة، بدءا من مصر ومرورا بلبنان وإلى تركيا وإيران على صعيد الأمة الإسلامية. وبالرغم من إعلان البعض من هؤلاء عن إحترامهم وتقديرهم للدور الذي لعبه الدين الإسلامي في رفع شأن الشعوب العربية وفي عزة كل أبناء المنطقة، إلا أن يد هؤلاء كانت واضحة في ما آلت إليه المؤسسات الدينية والشرعية من بُعدٍ عن الواقع ومن "تخلف" تنظيمي؛ وأن أحدا لا ينكر علاقة الكثيرين منهم بما كان ينتهي به المشهد السياسي بين الحين والآخر من امتلاء لسجون الدولة بالإسلاميين الأحرار والوطنيين الحقيقيين؛ وأن قرب بعضهم من أصحاب السلطة كان وراء ارتكاب بعض الحكام للكثير من الأخطاء المميتة في حق أوطانهم وشعوبهم، مما حال دون تنازل الناس وفي أحلك الأوقات عن حق الإنتقام.

[86] راجع كتاب The Desert and the Sown لـ Gertrude Bell، (1907) London: W. Heinemann، الصفحة 140.

وتتابع ’القوة العظمى‘، أو القوى العظمى، عملها خلال فترة ما بين الحربين العالميتين، ولتحول دون نجاح عمليات الإصلاح وتثبيتا لمواقعها، ومن أجل تحويل الثورة أو "النقمة الشعبية" على "الخديعة الأولى"، إلى معركة خاصة أو معارك منفصلة من أجل الإستقلال، كل في ’صندوقه‘ الذي رُسم له... وتقوم الإرساليات التبشيرية بواجبها حينذاك، فتتخرج من كبرى الكليات والجامعات الغربية والمحلية (وعلى رأسها ’الكلية السورية البروتستنتية‘: لاحقا الجامعة الأميركية في بيروت) مجموعة من "المثقفين" التحرريين؛ وبالرغم من إخلاص البعض منهم؛ إلا أن عدم وضوح الرؤية أو الإنسجام الفكري وكثرة الخلافات، و"قِلـَّة عقول" أو خبرات البعض الآخر واغترارهم بأنفسهم، و’بذكائهم الخارق‘، قد ساهم وبشكل مباشر وغير مباشر في تحقيق ما كانت تسعى إليه قوى الهيمنة، من إدخالٍ لـ’الأمة‘ في صراعات داخلية دائمة ومعقدة بين الأنظمة الرسمية ومختلف القوى الشعبية، وانشقاقات فكرية وعقائدية تفرقت على أساسها الطاقات بين قومية عربية وثورية معادية للإمبريالية، وناصرية وبعثية اشتراكية، وشيوعية ماركسية و أخرى ماوية، وقوميات محلية، ’كل يمقت الآخر‘، كما يقول ’مارتن كرايمر‘ Martin Kramer، و’إلى حد ارتكابهم المجازر بحق بعضهم البعض‘.

وتنقسم ’القوى الشعبية‘ في ظل ’الضياع‘، وانهيار مشروع قوى التحرر و’القومية العربية‘، بين قلة أو نخب مؤيدة لـ ’الوطنيات المحلية‘، وسواد يعلن ولاءه (حسب تقييم المفكرين الغربيين) لـ’الإسلام العالمي‘... ومن هنا يبدأ دور "التجار" في التحريض والتآمر على هذه ’الهوية العليا، الخارقة لتلك الحدود الإستعمارية‘، التي، وكما تفصله ’أنيتا بوردَت‘ Anita Burdett (1998) نقلا عن السجلات الرسمية لوزارة الخارجية البريطانية، اعتُبرت من قبل المسؤولين البريطانيين ’انها تشكل الخطر الأول والرئيسي على النظام العالمي‘... ولقد تمكن هؤلاء وبمساعدة "الوطنيين" من إخماد الثورة على الأرض، وقتل روح الثورة في نفوس الكثيرين؛ ولقد نجح التجار والمتربصون من ’إلغاء الشعب العربي‘ تحت وطأة هذا ’النمو السرطاني للدولة على حساب كل ما في هذه الأمة‘، كما يقول كمال أبو ديب، ’خاصة هؤلاء الذين يحلو لبعض القيادات العربية تسميتهم بالشعوب‘... ويسدل الستار بعد ذلك على هذه المرحلة الأولى من القومية العربية، وما تلاها من ’قوميات محلية‘، ولترسَّخ في أذهان الناس ما كان يراه البعض فيها من ’أداة سياسية من أجل تحقيق بعض المآرب‘، من ’فرض للعلمنة‘ و’رفع لبعض النخب المعادية للعقائد والتقاليد العامة إلى موقع السلطة والقرار‘، أو ’تشريع لطموحات بعض القيادات العسكرية‘ و’إنشاء لكيان بديل منافس ومعاد للكيان الإسلامي‘.

’الكثيرون من العرب لا يؤمنون بالعروبة في هذه الأيام، والبعض يفضل تسميتهم بالمصريين أو السوريين والأردنيين والمغربيين‘. المسلمون منشقون على أنفسهم وفي كل مكان بين سنة وشيعة، وفي تيارات متناحرة في كل من الساحتين السنية والشيعية... إلا أن ما نراه من ذلك على سطح الماء فيه الكثير مما لا يعبر عن حقيقة ما يجري بعيدا عن الأضواء، من وراء ’مسرح‘ الأحداث السياسية؛ وأن ما يحاول اليوم كل أعداء الأمة "تسلية" أنفسهم به من هذه الأحكام المبسَّطة والأحلام المبسِّطة، إنما ستكون عليهم وبالا، ولتزيد من وقع ما يخبئه القدر لهم من تغيرات مفاجئة وأحداث غير متوقعة. وستبقى هذه ’الهوية العليا‘ في ضمائر الناس وكل الشعوب العربية والإسلامية، راسخة في نفوسهم، رغم الكيد والتشويه، وتضليل بعض وسائل الإستعباد الإعلامية، ومكر أصحاب ’الأموال السهلة‘... فالذي يراد ضربه أو تركيعه اليوم ما زال فتيّا، لا يمكن تشبيهه بالرجل المريض أيام الدولة العثمانية. وللذين يدافعون عن حق وجود وحياة الأمة امتدادات لا ولن يعرف حدودها أحد من "الفضوليين"، في الغرب أو عند العرب... إلا أن أصحاب "المصالح الخاصة" يصرون وعلى ما يبدو على المضي في دفاعهم عن إمتيازاتهم حتى آخر قطرة دم في عروق ما "يملكونه" من تابعية مغلوب على أمرها، ورعية مضللة مستغلة مستنهكة ملغية... ولكن إلى حين.

الحلقة الخامسة
الأمة الإسلامية: بين السنة والشيعة

سيتساءل البعض عن الهدف أو الحكمة من وراء "إبراز" قضية الدين أو الكلام عن الأديان، وعن الطوائف و'الأقليات'... وسينتقد البعض الآخر مسألة تخصيص الإسلام من بين باقي الديانات، أو "محاولة" العودة إلى 'زمن الخلط بين الدين والدولة'. إلا أن ما ينبغي أن يسبق كل هذه التخوفات: نظرة واقعية إلى 'حالة التدين' وإلى مكانة الدين في نفوس الناس، خاصة في 'مجتمعاتنا الشرقية'؛ والسؤال عما إذا ما كان لـ "الدين الآخر" علاقة في ما يطالب به البعض من إقصاء لـ "دين الغير"، وعما إذا ما كان من مصلحة بعض "الأقليات" الإستمرار في حماية مواقعهم عن طريق "التحكم"، وفي ظل كل هذه "التغيرات" السياسية والإقتصادية والإجتماعية التي يشهدها العالم في هذه الأيام.

لا أظنني بحاجة للتأكيد مرة أخرى على الحيادية التي أنطلق منها في تقييمي وتحليلي للأمور؛ وفي هذه المسألة على وجه التحديد. ولطالما طالبَنا العقلانيون من العِلمانيين بـ 'شيء من الواقعية'؛ إلا أن هؤلاء هم المطالبون اليوم بإعادة النظر في بعض "الوقائع"، والنظر إلى ما يجري من حولهم بشيء من العقلنة والتجرد والواقعية... لقد سبق وفصَّلنا الأمر في الكتاب السابق[87]، وما أريد إضافته، أن ما يقلقني اليوم، وبخلاف كل المعطيات والظروف والوقائع السابقة، ما أسمعه من 'نوايا مبطنة'، و"ترتيبات داخلية" خلف بعض 'التحركات الدبلوماسية'، تحضيرا لمواجهة أو "مواجهات حاسمة"، وفي ظل ما نراه من أزمات معيشية عالمية متفاقمة، وأنظمة اجتماعية مهترئة على وشك الإنهيار.

المعادلة في هذه الحالة مختلفة عن سابقاتها[88]، وما يميِّز اليوم عن الأمس، ما تحتمله التطورات من مرحلة قادمة ستجوع فيها الناس، كل الناس، وما يستتبع هذا الجوع من 'فوضى أمنية إجتماعية' تسقط تحت وقعها كل محاولات التحكم، ولتحتكم الجماهير الجائعة لـ "القوة" ولقانون شريعة الغاب، عندما تنقض جموع الأكثرية أو "الأكثريات" على تلك الأقليات، في ظل بعض 'الشعارات المبهمة'، تعبيرا عن اليأس والإحباط، أو تنفيسا للإحتقان طلبا للثأر والإنتقام... وبشكل همجي إجرامي حيواني. هذا ما أدرَكه اليوم العقلاء من "المتنفذين" على الساحة الدولية، وما يدركه البعض من عقلاء أمتنا، وهذا ما ينبغي على كل صاحب عقل من "متحمِّسي" أو "مسفقي" الشعوب العربية أن يفكر اليوم فيه.

---

[87] راجع التأكيدات التي صرح بها بعض كبار منظري العلمانية حول فشل 'نظرية العَلمنة' في فصلي "جذور الخلل" و"العَلمانية: مراجعة وحسابات جديدة" من الكتاب السابق 'منطقة الشرق الأوسط: بوابة للحل، أو باب على الجحيم'.

[88] الكلام هنا سواء في القلة المتحكمة بشؤون السياسة الدولية، والأقليات الحاكمة على الصعيد المحلي وفي كل مكان، تماما كما هو الحال بالنسبة للأقليات الحاكمة والمتحكمة بمؤسسات الدولة وحياة الناس في منطقتنا وفي العالم العربي. عندما تصل الأمور إلى مرحلة يتعارض فيها النظام الإجتماعي القائم مع 'النظام الطبيعي لكل الأنظمة الحياتية' Natural Order of all Living Systems (وهذا ما وصلنا إليه)؛ وفي اللحظة التي يختل أو "ينهار" فيها نظام 'الأمن الإجتماعي' Social Security، الذي غالبا ما يؤدي إلى حدوث 'اضطرابات إجتماعية' Social Unrest، عندها تنقطع "الضمانات" وتنعدم قيمة مقوِّمات أنظمة الحكم والتحكم في أيدي "رموز" تلك الأقليات (على اختلاف أشكالها وتركيباتها)، مما يعرضها ومن معها (من تنتمي إليهم من طائفة دينية أو حزب عقائدي أو مجموعة إقتصادية أو جماعة إحتكارية أو شركة مالية أو عائلة حاكمة) من امتدادات بشرية ومادية (و"من دون تمييز") للثأر والإنتقام.

الحكم و"التحكم" بين الأكثرية والأقليات

الأكثرية تحكم وفي جو من الإسترخاء، والأقليات تتحكم وبحذر دائم... وللقاعدة إستثناءات. "الأقلية المنتجبة" تحكم بإسم الأكثرية الصالحة، وإن أكثر الناس في المجتمعات المضللة لا يعقلون. وعندما تُحتكر شؤون السلطة من قبل "تعساء" الأكثرية فالظلم عنوان الحكم، وسلطة زعماء الأقليات لا تخلو من المكر و"الإرتهانات"... الأقلية طائفة بعينها، أو أكثرية من بين أقليات متقاربة الأحجام. وهي "دائرة داخلية"[89]، أو جزء من الأكثرية، لها خصوصياتها المختلفة عن المحيط التي تنتمي إليه.

الأقلية لا تعني أو تستلزم الشذوذ أو الخروج عن المألوف. والإجتماع على الباطل أو الخطيئة، وفي كثير من الأحيان، أسهل من الإجتماع على الحق والحقيقة... إلا أن التجارب قد أثبتت، وتثبت، أن الأمن والإستمرارية والمصلحة العامة غالبا ما تتحقق في ظل حكمة الحكماء من جموع الأكثرية، في المحن والأزمات خاصة وعند الإمتحان[90]؛ في حين تجد الأقلية نفسها، عادة، مضطرة للمناورة، أو لخرق حدود الواقعية، أو للدخول في "تحالفات إرتهانية" حفاظا على مصالحها ومن أجل "البقاء".

هناك حالات إستثنائية كثيرة لا يهمنا الدخول في تفاصيلها. ولكن ما أريد تسليط الأضواء عليه في نهاية هذه "المقدمة الطويلة"، ما لكلمة 'الأقليات' من معان وأشكال ومكونات متعددة ومختلفة، وأن ما عنيته من هذا التعبير في الحلقة السابقة لا علاقة له بما سيدور النقاش حوله في هذه الحلقة. وبالرغم مما ينبغي التنبه إليه مما للمسألة من ترابط وأوجه شبه؛ إلا أن الخلط بين "دوائر التربص" وبين النخبة أو 'الصفوة' أو الفئات 'المحتسِبة'، على صعيد المثال، فيه الكثير من الظلم والتضليل.

ومع العودة إلى صلب موضوع الحلقة، فالحكمة تقتضي النظر إلى ما للمسألة من خصوصية في حسابات أعداء الأمة بالأمس وفي الوقت الحاضر، وبعين الأخلاقيات المتعارف عليها بين العامة، وكما تراها وتقيّمها الأقليات الإنتهازية الحالية من أجل إستغلالها "شرَّ" استغلال... ومع معارضتي لهذا الفرز الطائفي، وللطريقة التي يميِّز بها الناس بين المسلمين[91]؛ إلا أن من يُعرَفوا اليوم بإنتمائهم لشيعة آل البيت هم أقلية[92]، وعلى هذا الأساس يتعامل مع هذه الأمة الإسلامية كل من العدو والصديق.

لقد نجحت قوى الهيمنة بالأمس في تحريض البعض واستغلال البعض الآخر من بين الأقليات، في إخماد "ثورة الأكثرية" وقتل الهوية العربية، مجيدة اللعب على كل الأوتار الحساسة لتلك المسألة. ولقد "برع" الكثيرون من رموز تلك 'الأقليات' في "استثمار" حالة الجهل والتفكك وضياع الرؤية، في تحقيق بعض المكاسب و"الإمتيازات"، من قوة مادية، أو سلطة سياسية، أو "مقاطعة خاصة"... غير أن المستهدف اليوم هي 'الهوية الإسلامية'؛ و"الحسابات" لم تعد كما كانت عليه من ذي قبل[93].

---

89 مجموعة من الأفراد من مختلف الطوائف والإتجاهات، تلتقي على معارضة أو معادات القيم والتقاليد العامة للبلاد.

90 والمقصود هنا أن يكون لهؤلاء الحكماء دور في صناعة القرار، أو في ترشيد المسارات السياسية للسلطة الحاكمة.

91 هناك من بين هؤلاء من لا يؤمن بالله، وتجده حريصا على دين طائفته ويتكلم بإسمها، ومنهم من يحتكر قرارها! ومن الخطأ اعتبار كل الشيعة – أو كل من كتب على بطاقة هويته أنه شيعي – أنهم أحرص على الإسلام من غيرهم؛ كما أن الإستشهاد بواقع الأكثرية في مسألة 'الإجماع'، مع تجاهل تأثير 'الأمر الواقع' المفروض من قبل المتسلطين، وهيبة القوة، وسلطة المال، وحقيقة 'أكثر الناس' في هذه الحالات... إنما في ذلك أيضا الكثير من التبسيط أو التشويه.

92 يمَثل الشيعة قرابة الـ 15% من العالم الإسلامي؛ مقارنة مع الـ 85% ممن يسمُّون أنفسهم بأهل 'السنة والجماعة'.

93 نظرا لما لهذه الساحة الجديدة من امتدادات معقدة ومتقدمة، وأن "الذكاء" والبصيرة هذه المرة ليس حكرا على أحد.

جذور الفتنة، و'الجرح المفتوح'

ويعود 'أكثر الناس' إلى أصلهم[94]، وفي اللحظة التي تفتقد فيها القيادة... ولعل 'واقع الأكثرية' لم يكن بعيدا عما جرى بعد وفاة نبي الرحمة من خلاف حول أمر الخلافة، أو ما يسمى بـ 'الإمامة'. وفي الوقت الذي يتساءل فيه البعض إن كان من "المعقول" عدم حسم المسألة مسبقا من قبل الرسول، أو عن الحكمة من وراء ترك المسلمين من بعده لما قد يعرِّض وحدة كلمتهم وصفوفهم للمخاطر[95]، يعزو البعض الآخر 'القضاء' إلى حقيقة 'الإمتحان' الذي من أجله وجد الإنسان على هذه الأرض... ويستقرّ الأمر في النهاية لحكم الأكثرية 'حفاظا على الوحدة'، أو "رأفة" من الله على مصلحة الأمة. إلا أن أصحاب النفوس المريضة كانوا دائما حاضرين، كما لم تغِب آثار أيديهم يوما عن الساحة... ويُقتل الخليفة الثالث، ويزيد نشاطهم بعد اغتياله، تحريضا للمؤمنين على إخوانهم، إشعالا لنار الفتنة. وبالرغم من محاولات الإصلاح، إلا أن "الخبث"، وإصرار البعض على 'الثأر'، قد دفع بـ "الأهل" إلى الغرق في أول حرب دامية فيما بينهم، مما 'أودى بحياة المئات أو الآلاف من خيرة الصحابة'؛ ولتدفع الأمة ثمن الغفلة مرة ثالثة، بخسارة رأسها غدرا على أيدي النفاق من داخل صفوف المسلمين.

ويعود الحكم مرة ثانية إلى "الأكثرية"، وعلى أثر ما أصاب الأمة من خلل في نفوس الناس، وحيرة في قلوب المؤمنين، وليظهر "التعساء"، وحفنة ممن غرَّتهم المناصب و'زينة الحياة الدنيا'. وتتساقط الأمة الإسلامية مما تشرفت به من مكانة ومواقع متقدمة، فاتحة المجال أمام بعض الظلمة من "المتنفذين" للهيمنة على قرار 'الجماعة'. فيتسابق 'أصحاب الدنيا'، وكعادتهم وفي كل زمن، متنافسين على "المنابر" وعلى مواقع السلطة في ظل إبعاد أو اعتزال الأتقياء، فيظلم أصحاب الحق وتشوَّه الكثير من الحقائق... ولقد ثار الحسين يومها على 'الأمر الواقع'، مقدما نفسه وآل بيته ثمنا، وفي مشهد مزلزل كان سببا في ما عاشته الأمة وما زالت تعيشه من 'جرح مفتوح' بين المسلمين. ولقد كثرت الروايات حول مجريات أحداث الجريمة، إلا أن ما يلفت الإنتباه فيما توفر من كتابات، غلبة العواطف أو التطرُّف، وكثرة "الشتائم"، في ظل غياب الكلام العلمي أو الموضوعي والمستقل.

إن في ما قام به الإمام الحسين، وللدماء التي قدِّمت في كربلاء، لعبرة للمسلمين وللناس عامة وإلى يوم القيامة. إنها رسالة لكل مظلوم في مقاومته للظلم والظالمين، و"للتعساء" عندما يكثر الفساد، وعندما يتخطى العدوانُ حدَّ الوقاحة، أن لـ'من ضربك على خدِّك الأيمن' حدود لا يمكن تجاوزها[96]، ولن تغني عنهم "كثرتهم" أو هيبة مكانتهم من 'يوم الحساب' شيئا... إنها شهادة من لحم ودم محمد 'برسم' ضمير كل مؤمن مؤتمن بالحق وعلى الحقيقة. وهي وصمة عار على جبين كل المتخاذلين الخاذلين لإخوانهم ولأبناء جلدتهم، لا علاقة لهؤلاء بسنة أو شيعة، بل هم أقلية من الأقلية والأكثرية، قد 'شاء القدر' أن تتسلط وتستأثر بأمر الأمة في ظل غياب أصحاب الحكمة والبصيرة من المسلمين.

---

[94] لا أقصد بذلك موافقة أصحاب 'نظرية الواقعية' في الأصل السيِّء للإنسان 'الميال إلى الشر'، إنما حالة الفوضى وحالة اللاعقلانية، و'اللحاق بالركب' وبغض النظر عن هوية من يقود الجمع و'يدقُّ الطبل'، وعما يبتغيه ويقصده العازفون على وتر الفراغ والضياع من وراء بعض 'الشعارات المبهمة' الطارئة والمهيمنة في تلك الأوقات الحرجة.

[95] بالإشارة إلى وصيَّة رسول الله بعد عودته من 'حجة الوداع'، عندما أمسك بيد علي وأمام جمع من الصحابة قائلا: 'من كنت مولاه فعلي مولاه...' (الحديث المُتَّفَق عليه)، والذي رأى فيه البعض تعيينا واضحا من قبل الرسول لعلي من أجل خلافته من بعده، في حين اعتبرت 'الأكثرية' الأمر مناصرة لعلي في ولايته على اليمن (الولاية الصغرى).

[96] أي اللحظة التي تتوقف عندها "وصية المسيح"، عندما تتحول المواجهة إلى معركة مع من لا يرتدع ولا يستحي.

بداية 'الخلاف التاريخي'

لقد تباينت آراء المؤرخين في تحديد البداية أو نشأة الخلاف بين السنة والشيعة. وعلى ما يبدو، فللخلاف واجهتان مختلفتان: الأولى ذات جذور عقائدية تعود إلى 'أزمة الخلافة الأولى' (الإمامة) على أثر وفاة رسول الله، والثانية ذات صبغة سياسية تشكلت معالمها أو ركائزها الفكرية والوجدانية من وحي الأحداث المرافقة لثورة وشهادة الإمام الحسين. فلقد تطوَّرت الأزمة الأولى إلى خلاف ديني نتجت عنه الكثير من المفاهيم الخاطئة، وبعض الغلو العقائدي الذي أدى إلى ظهور التكفير والتضليل بين مختلف الفئات والجماعات والمذاهب[97]... ثم أتت بعد ذلك أحداث 'الفتنة الثانية' وقتل الحسين، ليزداد الشرخ، وليتخذ الصراع معها طابعا سياسيا، كان لأدوات التسلط ودوائر التربص الدور الأكبر في تثبيت الإختلاف وتعميق حالة الشقاق فيه بين المسلمين.

الوجه العقائدي للخلاف

مما لا شك فيه أن المسلمين (بمختلف طوائفهم) هم المسؤولون عن هذا الخلاف ومنذ انطلاقته، لا يستطيع أحد أن يلقي باللوم في ما جرى على أحد من 'قوى الكفر' أو التسلط، أو على 'المنافقين' من الداخل والخارج. وبالرغم من محاولات المتربصين ونجاحهم بعد ذلك في 'شق عصا الوحدة'، إلاّ أن أحدا لا يستطيع منع العقلاء والشرفاء "الأتقياء" من 'إيجاد الصيغ المناسبة لتحقيق التقارب وتضييق فواصل الخلاف'، ومن تقوية منعة الشعوب الإسلامية (أو "جهاز المناعة" في جسد الأمة) من أجل مواجهة 'ما تكرس في وعي العامة من فئويات وعصبيات' تحول دون نبذ 'دعاة الفرقة' و'قطع الطريق على المغالين والتكفيريين'.

إن ما جرى خلال فترة ولاية الإمام علي، إنما هو جرح في ضمير كل مؤمن بعيدا عن طائفته، وللمسلمين الصادقين جميعا، لا تخُصّ الشيعة دون غيرهم... وإن كان لحال العامة (أو 'أكثر الناس') الأثر الأول والأكبر في وقوع الظلم، إلاّ أن من ساهم في تثبيت الخلل وإطالته، إنما هم ممن يُحسَب على النخبة ممن تخطى الغلو فيهم حدود المنطق، في ظل سكوت الأكثرية العاقلة من تلك الأقلية[98]، وتراجع البعض إلى المواقع المذهبية، و'ارتماء الآخرين في أحضان السياسات الفئوية والمناطقية'، وفي ظل التلطي وراء أهداف وشعارات لا تعطي الأولوية لوحدة المسلمين ولقضاياهم المصيرية... وكما يقول السيد محمد حسين فضل الله، 'فالعلماء والمثقفون والحركيون (البعض المتنفذ من هؤلاء) هم المسؤولون (في ما نعيشه من خلاف عقائدي) عن صناعة التعصُّب في واقع الشعوب الإسلامية'، وهم المسؤولون أولا وأخيرا عن 'إشاعة نزعات التكفير والإعتقاد بالخرافة'، وترويج 'ثقافة الغلو' وغرس أفكار التخلف والجاهلية، وشحن عقول ونفوس الناس والعامة بالحقد والكراهية لمن خالفهم 'في بعض المفردات العقائدية والفكرية' من المسلمين.

---

[97] أي أن لظاهرة التكفير والتضليل و'التفسيق' أساسها في التطرُّف الفكري و'الغلو العقائدي' عند بعض "العاطفيين" ممن ذهبت بهم "قلوبهم"، أو 'نفوسهم الأمارة'، إلى حد تحوير النصوص واختلاق الحقائق وتشويه عقيدة المسلمين.

[98] المقصود هنا، هم العقلاء والصفوة الصادقة ممن كان الحق في عقولهم، والحقيقة في قلوبهم، أعمق وأعظم وأولى من صدى "دق الطبل"، ومما جمع والتفَّ حوله الجمع، ومن الأمر الواقع الذي فرض أولوياته على جماعة المسلمين.

الوجه السياسي للخلاف

ومما لا شك فيه أيضا، أن ما جرى من أحداث أبان ’الفتنة الأولى‘، وما تلاها من قتل وضياع، قد كان له الأثر والإنطلاقة في ثورة الإمام الحسين. إلاّ أن لشهادة الحسين معان ومدلولات كبيرة تفوق كل الخصوصيات وتتخطى حدود الخلاف بين السنة والشيعة، وهي عبرة قائمة للناس أجمعين. فلقد قام الحسين ليقول لا للظلم والفساد، وليضع حدا للتمادي على حدود الله وحقوق ’المستضعفين‘، وفي مواجهة غير متكافئة "إحياءً للإرادة"، وإنذارا لكل المستكبرين حين’ينتصر الدم على السيف‘... فالظلم والفساد مشكلة سياسية، وآفة إجتماعية قائمة ومزمنة لا تخص الأمة الإسلامية دون غيرها، وللمسلمين ’تمحيص‘ وابتلاء في مواجهة الأنا وظلم النفس، وفساد قوى التسلط سنة كانت أم شيعة... ولقد ساء الحسين من خذلان بني شيعته ما ساءه من ظلم القريب والبعيد من ’أهل الشقاق والنفاق‘؛ إلا أن ما جسَّدته وقفة الحسين في أعين أصحاب السلطة والنفوذ من رسالة و"مرحلة سياسية" جديدة، فإليها يعود "أصل" الصراع و"الخلل" الذي ساهم في تعميق جذوره ’المتربصون‘ من أعداء الأمة، ومن أصحاب "العقول البسيطة" أو ’النفوس المريضة‘ من داخل صفوف المسلمين.

عندما ينتقل الصراع إلى معركة ضد ’الفساد السياسي‘، و’كلمة حق في وجه سلطان جائر‘، فمن الطبيعي أن يستنفر الحدثُ أصحابَ التسلط و’عشاق الكراسي‘ وكل من يرى نفسه فوق الحقيقة. ولقد ساهم الأقرباء من هؤلاء قبل الأعداء في إخفاء الحقائق، وفي تشويه أوجه الإختلاف الحقيقية؛ وليختلط السياسي منه بالعقائدي[99]، فيتحول الصراع من معركة مخلَصة وواضحة من أجل التحرر من كل أشكال الظلم والإستبداد، إلى خلاف مذموم تضيع فيه الرؤية، و’حرب استنزاف‘ داخلية، يزايد فيها المنافقون على المؤمنين في واجب الزود عن "العقيدة الصحيحة" للمسلمين!

السنة والشيعة بين الماضي والمستقبل

علوم الدين والعقيدة ليست من اختصاصي[100]، ولا أدعي معرفة كل تفاصيل ما أحاول جمعه من أطراف الخلاف بين السنة والشيعة، وصولا إلى ما يمكن أن يساهم في معالجة أو ’قطع الطريق‘ أمام جهود ’إحياء الفتنة‘ وما نشهده اليوم من استغلال رخيص من قبل أعداء الأمة في هذه المسألة للميول الغرائزية ولحالة الجهل العامة بين عامة المسلمين... ولقد تراسلت قبل المباشرة في الكتابة (في موضوع هذه الحلقة) مع مجموعة كبيرة من العلماء والأكاديميين المتخصصين ومن كبار الأئمة (من السنة والشيعة)، طالبا المساعدة في توضيح المسألة وتحديد جذور الخلاف بين السنة والشيعة، والأسباب التي ساهمت في استمرارية عوامل الفتنة، وما حال ويحول دون إيجاد حلول عملية لها... وبعد الدراسة والتمحيص الأولي لما بين يدي من شرح وتفسيرات علمية ومنطقية مختلفة ومتنوعة، أجد نفسي مضطرا للإلتزام بالأولويات، وبما يتهدد الأمة واستقرار المنطقة مما يُعمل على ’إيقاظه‘ من "خلط جديد" بين الحقائق وبين السياسة والعقيدة، وفي ظل ما يعيشه الناس من نفاق وتطرّف، وجهل في صفوف العامة لا سابق له في الساحة العربية أو عند الأعراب من المسلمين.

---

[99] أي خلط الصراع السياسي (مقاومة الظلم والفساد) بتعقيدات الخلاف العقائدي منعا للحلول العملية وتشويها للحقيقة.

[100] علما أن ’مادة‘ Religion in Context، كانت من ضمن برنامج السنوات الثلاث الأولى من دراستي الجامعية.

لا أريد تجاوز أو تهميش الخلاف العقائدي بين السنة والشيعة، أو التقليل من أهمية أو خطورة ما تطور إليه الخلاف من غلو وتضليل وتفسيق وتكفير. وللمسألة حساسية ينبغي معالجتها بكل دقة، وبطريقة مختلفة بعيدا عن 'مناخات التفرقة والتجزئة'، وضمن 'برنامج متجدد' يستفيد فيه الحكماء من 'الأخطاء السابقة' ومن 'العثرات الظاهرة'، ومن أسباب فشل 'الأساليب التقليدية' القائمة، والقائمة أصلا على تتبع العورات وابراز السقطات وتسجيل النقاط السلبية من هذا الفريق على ذاك. إلا أن ما ينبغي أن يكون على رأس أولويات مشروع معالجة الخلل، ما يجري إحياؤه وتطويره اليوم من 'الواجهة السياسية' للخلاف، وعلى يد تحالف الحرام من رأس المال وأجهزة التسلط والتنصُّت، مع ما أمكن شراؤه أو احتواؤه من مرتزقة أو رعية "مجوَّعة" مضللة.

لقد دفع استبداد التعساء من الأكثريات الحاكمة بالأقلية أو الأقليات المستضعفة والمضطهدة، وعلى مدى العصور الماضية، إلى اتباع أساليب 'التقية'؛ عندما يضطر المرء إلى إخفاء ما يعتقده، مظهرا أو 'مبرزا لما يتوافق مع الساحة العامة'... ولقد انعكست 'سياسات التقية' هذه، وما تستلزمه من "انغلاق" فكري وعملي، على 'مصداقية' تلك الأقلية، وعلى فرص عرض أو توضيح الحقيقة... وما ينبغي أن يتصدّر لائحة أولويات التعامل مع هذه 'القضية المتفاقمة' أيضا، ما تجتمع عليه اليوم قوى الإحتكار والتطرف (المادي والسياسي)، "التفافا" على ما تقوم به الآن قوى الإصلاح والتعقل (بعيدا عن الأضواء)، وحفاظا على ما هي عليه الشعوب المعاصرة من "سطحيَّة" أو 'جمود فكري' لا يُترَك للعقل فيه مجالا للإنتاج والإبداع في حل 'المشاكل الموروثة والمستجدة'، ولكي يبقى التاريخ حاضرا بثقله في أي مبادرة للحوار أو التقارب بين المسلمين.

لقد سعت معظم 'الحضارات الإنسانية المنبعثة من أحضان الأديان السماوية'، وبطرق مختلفة، إلى إخضاع الدين ورجاله، و'تحوير نصوصه' ومقاصده، طبقا لسياساتها وخدمة لمصالح سلطانها. وغالبا ما كانت تتم عملية تثبيت السلطة عن طريق استغلال الخلل والتناقضات الناتجة عن الفرقة... إلاّ أن ما تقوم به قوى الظلم والهيمنة، وعلى مدى العقود الثلاث الماضية، من تحريك للعصبية، و'إبراز للأبعاد الغرائزية'، عبر التلاعب على الكثير من التعقيدات التاريخية والحساسيات الثقافية، إنما يهدف إلى تشويه الإسلام (تصويره على أنه دين عنف وإلغاء للآخر) لإبعاده عن ساحة التحدي، وكي لا تُستنبَط من قيَمِه الحلول والبدائل، ومن أجل الحفاظ على المكتسبات أو "تحصينا للمواقع"، ومحاصرة أو إرباك حالة الوعي عند العقلاء من الإصلاحيين.

ومنذ انهيار الدولة العثمانية، فلقد شهدت 'العلاقات السنية الشيعية' حالة من 'الهدوء النسبي'، وإلى أن قامت الثورة الإسلامية في إيران، مذكرة قوى الهيمنة بما قام به العرب أبان عهد الإنتداب... لا أريد الدخول في تفاصيل الأحداث والأسباب التي انطلقت في أجوائها الثورة، وبالرغم من أهميتها؛ إلا أن ما رفعته الثورة من شعارات للوحدة، و'إسلامية لا شرقية ولا غربية'، ضد الظلم والإستغلال وما سُمِّي بالإستكبار العالمي، كان سببا، أو السبب، في ما شهدته الساحة الإسلامية السنية والشيعية، من تحريض 'لاستعادة الماضي'، وترويج لشعارات محاربة 'تصدير الثورة'، وحروب دامية مفتعلة ذهب ضحيتها الملايين من المسلمين... ولكن، ما أريد التنبيه إليه اليوم، ما تنطلق منه القوة المهيمنة من "رؤية استراتيجية" تستفيد فيها مما جرى بين 'موسكو' و'بايجين' خلال فترة الحرب الباردة، وما خيَّم على "العلاقات الداخلية" بين بغداد ودمشق والقاهرة خلال فترة ازدهار 'القومية العربية' من حذر وريبة وحالة 'انعدام ثقة' متبادلة مماثلة تجبر الطرفان أو أحد الأطراف إلى تغيير أولوياته، من أجل فرض تلك الأجواء على العلاقات العامة والدولية بين المسلمين.

وكما سبق وفصلته في الحلقة الرابعة، فلقد تم التخلص أو القضاء على فكرة ’الهوية العربية‘، وعلى مدى ثلاثة عقود من انتهاء الحرب العالمية الثانية، لم توفرِ فيها قوى الهيمنة والإحتكار وسيلة إلا وسخـرَّتها في تقسيم وتفريق وتعميق الشقاق والخلاف بين الأطراف وفي كل الأقطار العربية... ولقد برزت عندها تلك ’الهوية الإسلامية‘، وكبديل طبيعي للهوية الجامعة[101]؛ ومن "الخِفَّة" افتراض أن تكون وراء إثارة المسألة حينذاك أي من قوى الهيمنة[102]، لما يدركه صناع القرار فيها من خطورة تفوق ما كانت تجتمع عليه شعوب المنطقة من ’عروبة‘، أو ما يسمى بالقومية العربية. وإن تغيَّرت الأمور الآن بعض الشيء، إلا أن الإسلام كان الهدف في أعين معظم المفكرين الغربيين، لما يمثله هذا الدين من تحدٍ عملي في وجه ما وصلوا إليه من ’أشكال نهائية للتطور الحضاري‘... الإسلام هو اليوم الهدف بعد الإنتهاء من "الشيوعية" ومن الإتحاد السوفياتي؛ الإسلام، كدين وعقيدة، هو المستهدف اليوم وبالرغم مما تتطلبه سياسة ’القوة الناعمة‘ من مهادنات ومداهنات و’لي عقول‘؛ والإسلام بسنته وشيعته، هو من يراد من المسلمين أنفسهم تشويهه، من أجل إزاحته، أو القضاء عليه.

إن ما تم إخضاعه، أو "تطويعه"، من الدين[103] لا مشكلة عند أصحاب ’التسلط العالمي‘ معه، ولكن الخلاف حول مبدأ التزام الحق وقول الحقيقة، وفي الإستقامة والعقلانية في التحركات العملية... أن تمدح وتبرِّر وتطيع الأوامر فأنت المثال والقدوة، والتطرُّف في رفض التطرّف في العدوان، و"الثورة" هي الخطر. وهي ’الخطر الأكبر‘ عندما تخرج الثورة عن المألوف لتحتكم إلى الحكمة، وعندما يخرج "الثوار" من تحت ما تفرضه عليهم أعمالهم ومواقعهم لينفتحوا على الناس من حولهم، وعلى من خالفوه وخالفهم... ولو كان ’السنة‘ في إيران هم أصحاب الثورة لما تبدل من الأمر شيئا. فالعرب (السنة) و’العروبة‘ أيام "الكرامة" والشهامة كانت الهدف، وهم (العرب) في نظر ’الغرب‘ (أو أصحاب القرار فيه) هم اليوم "أموات"... الإسلام ولغة الإسلام، والهوية الإسلامية هي الأساس؛ وإن ما يرهق عقول منظري فكر الهيمنة والإستعلاء والإحتكار اليوم، ما تمتلكه الهوية هذه من قوة في زمن سياسة القوة، وما يحققه أصحابها من مواقع على الساحة الدولية، وفي ظل ’شريعة الغاب‘.

نعم، لعل البعض من قيادات الثورة قد أخطأ، كما أخطأ الرئيس ’جمال عبد الناصر‘ من قبل، في طريقة تعاملهم مع الخلل أو ’الخلاف الداخلي‘، ومع ما كان حينذاك يسمى بـ ’الأنظمة الرجعية‘. ولقد أجادت "قوى التفرقة"، كما "أحسن" العملاء والدخلاء في "زرع الخوف" واستغلال الفرقة، فكانت الحرب العراقية الإيرانية (وما خلفته من ملايين القتلى)، واستنزفت الطاقات البشرية والمادية، وفي ’حروب بالوكالة‘ خاضها العرب والمسلمون لمصلحة قوى الهيمنة (خاصة الولايات المتحدة)، من أفغانستان إلى الشيشان، ومن بعدها حرب البلقان، لم يكن لهم أو لقياداتهم علاقة بإدارة الصراع، أو قطف الثمار وجني المكاسب، سوى القضاء على "العنصر المقاتل" من أهل السنة من المسلمين. وكما فعلوها بالأمس، هم يعيدون الكرَّة علينا مرة أخرى، عسى أن يدفع الخوف وسوء الظن والنيّة بإحدى الطائفتين، أو بكليهما معا، للمراهنة والإرتهان، أو ’الإرتماء‘ في أحضان أعداء الأمة والدين.

---

101 أي أنه كان من الطبيعي، في ظل اليأس والإحباط الناتج عن الإختلال في موازين القوى وعن "الهزائم المتكررة"، أن تبحث الشعوب العربية آنذاك وتتمسك بما يجمع بينها، أو ما تبقى لديها وفيها من روابط أو قواسم ثابتة ومشتركة.

102 كفرضية أن تكون وراء "الصحوة" أو ’الحركة الإسلامية‘ (السنية) آنذاك أي من قوى الهيمنة؛ أو ما تم ترويجه من دعم إحدى قوى الإستعمار لـ’الثورة الإسلامية‘ بعد ذلك، من باب المنافسة أو الصراع على المصالح في المنطقة.

103 وبتعبير أدق: ’التديُّن‘ أو التعبُّد البعيد عن الواقع وعن الحياة الإجتماعية (أو الذي لا يتدخل في شؤون الناس)، و’إيمان الدراويش‘ أو "المطوّعين"، ومن يسمَّون اليوم بالمعتدلين ممن يقتصر اعتدالهم على قضية حقوقهم السياسية وعلى "كراماتهم الإنسانية"، وفي ما عدا ذلك (في أمور الدين والعقيدة، وفي كل العبادات) تجدهم من أشد المتطرِّفين!

المأزق و"الإختراق الأخير"

إن ما أستطيع اختصار تلك ’الرؤية الاستراتيجية‘ به، والتي ينطلق منها وعلى أساسها اليوم صناع قرار القوة المهيمنة في تعاملهم مع القوى الإقليمية والمحلية في المنطقة وفي المرحلة القادمة، أن في زرع حالة "الخوف الداخلي" هذه (خوف أصحاب القضية الواحدة من نوايا بعضهم البعض) مصلحة وحاجة من أجل دفع الأطراف (أو "طرف معيَّن" ومحدَّد) إلى ’تخفيف حدّة عدائه‘ معهم (كما جرى مع بايجين)، أو التعاون (التجربة المصرية) لاقتسام المصالح أو الإنسحاب من المعادلة. وبما أن الكلام هنا عن تخفيف حالة العداء واقتسام المصالح، فالمقصود به إذن إيران وليس العرب؛ ولا أظنني الآن في حاجة مرة أخرى لشرح ’النظرة الأميركية‘ (والغربية بشكل عام) لأهل المنطقة، وللطريقة التي ورثتها الولايات المتحدة عن المملكة المتحدة في كسر ما يضمن التوافق والإستقرار بين ’الأكثرية‘ و’الأقلية‘، أو للقواعد الجديدة للعلاقات الدولية والتي تتعامل وستتعامل على أساسها "الكيانات الدولية الجديدة" مع بعضها البعض. وبغض النظر عما ذكرته سابقا من تحالفات جديدة، ففي ظل غلبة منطق ’سياسة القوة‘ لا مكان للضعفاء... والقوي من يجيد العمل على ألا تقتصر قوّته على أهله وشعبه وضمن حدود قطره ومنطقته. ومن هنا تأتي أهمية ما سنتكلم عنه في الحلقة القادمة، من حاجة ماسة لإعادة النظر في القواعد العامة التي تقوم على أساسها التركيبة الإجتماعية والسياسية في منطقتنا وعلى صعيد الدولة ومؤسساتها، وفي ما بينها وبين ما يُجمع تحت عنوان القوى الشعبية، من أجل إزالة مواقع الإختراق وإلغاءً لمادة أو ’مواد الإستغلال‘، بدءا من ساحة أو ساحات الأكثرية، وبما فيه مصلحة عامة مادية ومعنوية، أمنية وسياسية، وللجميع.

لقد وصلني العديد من التعليقات على ما كتبته أو جمعته في هذه الحلقة من "وقائع مفصلية"، والكل يتمنى تغيير أو تعديل ما قد يُفهَم أو يُشير من الكلام على عيوب أو مزلات جماعته أو طائفته. إلاّ أن ما أريده من وراء عدم الغوص، أو "الغرق"، في تفاصيل ما تمتلئ به الساحة مما يثير سخط أو سخرية أصحاب الفكر لما وصلت إليه الشعوب العربية والإسلامية من مستوى ثقافي وحضاري، إنما هو من أجل الخروج من هذا ’الجمود‘ ومن تلك ’الغيبوبة‘، ليرى من ما زال فيه من أمتنا بصر، وليتفرَّغ أصحاب البصيرة لما يتربص بمصير الأمة اليوم من مخاطر... أن نترك المجال "مفتوحا"، وأبواب الساحات الداخلية "مشرَّعة" أمام المتربِّصين... أن تبقى ’التقيَّة‘ بيننا، فلا ننفتح على بعضنا، لنقدِّم سوء الظن على المصارحة في ’مصالحاتنا‘... أن نبقى أداة أو ألعوبة بيد أصحاب المصالح، وفي إمرة رموز الإحتكار والتسلط... ألاّ نخرج من أسر ما اختلقناه من مقدسات في سيرتنا وتاريخنا: فهذا ما يريده صناع القرار منا وفي منطقتنا للمرحلة القادمة، وكمقدِّمة من أجل التخلص من الأمل، والقضاء على مواقع النهضة ومواطن القوة... وإن لم يكن، فتحضيرا لما تستلزمه حرب الإستنزاف من ’توازن استراتيجي‘ بين التناقضات، وبين الأكثرية والأقلية، أو الأقليات... وإن كانت "حصيلة" الفتنة الأولى ’سبعة عشر ألف شهيد‘ من خيرة القوم، وقرابة المليونين خلال ’حرب الخليج الأولى‘، فإن ما ينتظر أهل المنطقة (وبكل طوائفها ومذاهبها) في حال الإستمرار في ما نراه من جهل وغباء، ومن ’تبعيَّة عمياء‘ لـ "أجهزة المكر"، المحلية والدولية، سيفوق هذه المرة كل التوقعات والحسابات.

الحلقة السادسة

مبادرة ’تجسير الهوة‘

إن ما سأقوم "بطرحه" في هذه الحلقة، إنما هو موجه إلى الساحة أو الساحات الداخلية حصرا، مع ما يتطلبه الأمر من "حكمة" وابتعاد عن ذكر ’التفاصيل المنهجية‘، أو الخطوات التنفيذية للعمل. إن ما يعيق أهمية وضرورة تقديم "وضوح" الطرح في ما نقترحه من علاج لخلل مزمن ومتجذر، إنما يتمثل في ما يستلزمه نجاح المبادرة من حنكة، وتحرك نبتعد فيه عن تقديم "الخدمات المجانية" لمن لا يهمهم أمر نهوض الأمة، أو يؤذيهم ومصالحهم في ساحاتنا "الترشيد" أو العمل الإصلاحي. ولذلك، سوف يقتصر الكلام هنا (وكما فعلت في الحلقة السابقة) على "الخطوط العريضة" اللازمة، من أجل استكمال ما نسعى ونهدف من وراء هذا الكتاب إلى التأسيس له من رؤية مشتركة وواضحة، وبما يكفي لإعطاء الأمل والعلامات أو ’الإشارات الإيجابية‘ لجمهور العامة، تحديدا لما نعمل وسنتعاون لاحقا على أساسه في ترجمة المبادرة إلى مواقف وخطوات عملية على أرض الواقع، بعيدا عن القراءة والكتابة، وعن المتاجرة أو ’المزايدة‘، وعن كل أساليب ووسائل التسويق والإعلام.

وإنطلاقا مما تستلزمه الواقعية من دقة في تقييم الحدث القائم وفي التعامل مع الأمر الواقع... وما تفرضه ’سياسة القوة‘ من ترتيبات داخلية، ومن قوة لحفظ الحقوق وفي تبادل المصالح والمنافع. وبناءً على ما نشهده اليوم من إفرازات خطيرة ومتطوِّرة لفكر الهيمنة، ولعبة محاور قديمة ومتجددة، وفي ظل الأنا (أنا النُّخب) والجهل (جهل العامة)، وطغيان الفرقة والتطرف والإنقسامات والغرائز... وبما أنه من مصلحة كل فئة ألاّ يُستغلّ "الجوع" في إختراق أو إضعاف تماسك ساحاتها الداخلية، وبغض النظر عن كل الإحتمالات والتوقعات في ما نحن قادمون عليه في المرحلة القريبة القادمة، فإن أحكم ما يمكن أن يُحتكم إليه مبادرةٌ من أجل "التعارف" والتعرُّف على واقع وحقيقة ما يعيشه الناس وفي كل دائرة أو "طبقة" من طبقات مجتمعاتنا من ’واقع‘، وما يتحرك به هؤلاء من ’حقيقة‘، من أجل تصحيح وترشيد ما شوَّهه "الجفاء" وسوء الظن في عقولنا من فرضيات و’أحكام مسبقة‘، ومن أجل ’تجسير الهوة‘ بين كل المواقع الفاعلة، تحضيرا لما تقتضيه ما ’يخفيه‘ الغد من مستجدات.

كان من المفترض ألاّ يأخذ موضوع ’الأمة الإسلامية‘ أكثر من شهر واحد لإعداده وكتابته، وكباقي حلقات هذا الكتاب الذي أعطيه الآن الأولوية من بين ما نقوم به من أعمال لا تقل عنه أهمية. ولقد اضطررت إلى التفرّغ لمناقشة تفاصيل ما تم اختياره واختصاره من وقائع وأحداث تاريخية، وعلى مدى ثلاثة أشهر كاملة... وإن مما وصلني من تعليقات مختلفة، ومن أصحاب الفكر والمكانة، ما يزيدني إصرارا ويقينا من ضرورة الإنطلاق بالمبادرة من الساحة الإسلامية ومن عند ’الأكثرية‘؛ وبغض النظر عما يمكن للبعض أن يستعجل إلى تفسيره واستنتاجه من ’حسابات خاصة‘ و"شبهات" من وراء تقديم هذه "الأولوية"... إلا أن ترك ما يجري التحضير له اليوم من ’توازن استراتيجي‘ بين القوى الفاعلة من السنة والشيعة لن يكون من مصلحة أحد أيّا كان موقعه؛ وإن تبعات أي مواجهة ستقع أول ما تقع على رؤوس الأقلية والأقليات، التي إن لم يكن بمقدورها اليوم تفهُّم الأمر "الواقع"، فإن أقل ما يمكن أن يتوقعه العقلاء منها، ألا تسيء "قراءة" ما وقع به الأسلاف بالأمس من أخطاء.

أسباب ومقدمات

لست أدري ما الذي يمكن أن أصف به ما آلت إليه شعوب منطقة ’مهد النبوة‘ والحضارات، ومنبع الطاقات والثروات الفكرية والمادية، و"منطلق" البشرية، و"أصل الإنسان"... لست أدري! ما الذي أوقف عجلة الحياة، وما الذي عطل مسيرة التقدم، ليغدوَ الناس هناك ’عالة‘ دون باقي البشر، إن من حيث التحرّر، أو التطور الإجتماعي الطبيعي لكل "المجتمعات الطبيعية" على هذه الأرض!؟ من المسؤول عن استمرار ’التبعيّة‘ لقوى الهيمنة المتسلطة على الرقاب والمقدرات ومصير الناس، ومن هم المسؤولون عن تلك ’التشخيصات‘ القاصرة والمضللة للخلل ولما أصاب الأمة من أمراض؟ وإن كان الجهل والتطرّف وتقديم المصالح الخاصة على المصلحة العامة على رأس هذه المصائب، إلاّ أن من أكبر وأوّل وأهم أسباب الضعف والفشل، وما نعيشه من جمود وشلل في إيجاد الحلول، إنما تعود إلى حالة عدم الإستقرار النفسي والمعيشي، وفقدان التوازن والتكامل بين القوى المتنوعة والمكونة، على اختلافها، للكيان الإجتماعي الذي نعيش فيه[104].

إن من سنن الوجود اختلاف الخلق "المتفاضل" بعضه على بعضه الآخر، و’ليكتمل المشهد‘ بتكامل "المتنوعات" التي لوجود العناصر "السلبية" فيها حاجة لازمة من أجل الإتزان والإستقرار. وعندما يختلُّ التوازن، وفي أي دائرة من دوائر هذا الخلق، يعتلّ "التكامل" وتحدث الإضطرابات؛ ولن يقدر في النهاية أحد، أو أي طرف من مجموع هذه الأطراف المختلفة، على إلغاء "نقيضه"... فوراء كل مرتفع هوّة، ولا قوة من دون ضعف، والسلبية "موجبة" أو هي سبب من أسباب الإيجابية، ولا معنى لـ ’الإمتحان‘ أصلا إن لم يكن لدى الإنسان أن يختار بين الخير والشر.

ويعج التاريخ بقصص من حاول توحيد أرضه أو شعبه أو أمته، من قيادات ’روحية‘ وحركية، بالإقناع كان ذلك أم قصرا عن طريق القوة. إلاّ أن ما ثبت صلاحه وبقاؤه من بين كل هذه التجارب، ما روعيت فيه مستلزمات الإستقرار والإتزان من قناعة جامعة، ومن قوة لحمة ما يربط بين أطرافه. ولقد فشلت الكثير من مشاريع الوحدة، وانهارت "اتحادات" بُنِيت كياناتها على مبدأ إلغاء ’التعددية‘، أو على الهيمنة وفرض سلطة ’اللون الواحد‘، أو إعلاء صوت الأقليات على حساب "اللغة المحلية" وبما يتناقض أحيانا مع القيم والمبادئ والتقاليد العامة... غير أن ما نحتاجه اليوم من ’وحدة معنوية‘، إنما ينبغي أن تكون مبنية على الإعتراف بواقع الإختلاف، وعلى فهم وفقه وتقدير ’سنة‘ هذا التنوُّع. وإن ما نطرحه من تجسير[105] لتلك الهُوّة القائمة بين الكتل الشعبية والدوائر الرسمية ومواقع السلطة، فلنفتح به المجال أمام من همَّشهم الضياع من قدرات صادقة، ولتتكامل به الخبرات والطاقات الفاعلة في ما فيه أمن واستقرار الساحات الداخلية، وبما يتناسب مع تطورات الزمن الذي نعيش فيه.

---

[104] هناك تشابه شبه كامل بين القوى الحيوانية (الشهوات المتركزة في القسم السفلى -أسفل الصدر- من جسد الإنسان) والقوى الإنسانية (ما يتميز به الجزء "الأعلى" من جسد الإنسان من قلب وعقل) عند الإنسان على الصعيد الفردي، وبين هذين المحورين المتناقضين وفي كل مجتمع، أو عند البشر على الصعيد الجماعي. فكما ينعكس اختلال التوازن بين تلك القوى المتضاربة (عندما يحاول المرء قتل أو تهميش إحداها) على استقرار حياة الإنسان الشخصية الخاصة، كذلك، فإن أي اختلال لهذا التوازن في الساحة العامة وفي أي مجتمع (عندما تلجأ الأطراف إلى ألغاء بعضها البعض) سينعكس سلبا على استقرار الحياة الإجتماعية والسياسية، وعلى استقرار حياة كل طرف أو جهة مكونة لهذا المجتمع.

[105] المقصود بكلمة أو تعبير ’تجسير الهوة‘ Bridging the Gap، وبخلاف ما نسمعه عادة من شعار ’ردم الهوة‘ وما يُفهم منه من توحيد قصري في ’قالب‘ فكري ومنهجية عملية واحدة، إنما هو من أجل الإستفادة من كل الطاقات، ومن تكامل الخبرات (عبر التنسيق أو التعاون الصحيح معها وفيما بينها)، دون التدخل بـ "المصالح" والخصوصيات.

وسيتساءل الكثيرون من أصحاب النفوذ، أو السلطة السياسية أو المادية، عما "يدفعهم" الآن، أو ما يستلزم اليوم منهم التعاون من جديد، وفي ما فيه "انتقاص" من قدرهم، أو من أسباب قوتهم... وهذا ما أردت وأريد التنبيه إليه من خلال الحديث عمّا 'ورثته الولايات المتحدة عن المملكة المتحدة' من أسلوب "ماكر" في التعامل مع مسألة 'التوافق والإستقرار بين الأكثرية والأقلية'، وعما تستلزمه 'القواعد الجديدة للعلاقات الدولية في ظل غلبة منطق سياسة القوة'[106]. فإن تبعات ما ستُدفع إليه جموع الأكثرية لن يقتصر خرابها على الساحة المحلية، ولن يقدر محتكرو قرار الأقلية[107] والأقليات على العمل بعيدا عن أعين العقلاء "هذه المرّة"... هذا جانب مما يمكن لأصحاب "المسؤولية" لمسه، وما لا يريد أو لا يقدر على رؤيته أصحاب الشأن أعظم. فعند الجوع[108] لا مكان للعقل أو العقلانية، وما أكثر أصحاب المشاريع و'الشعارات المبهمة' التي ستتحرك "جموع الجائعين" في ظلها حينذاك.

أنه ومن "حسن الحظ" أن أقنعت التطورات الإجتماعية الحالية، وما آلت إليه الحالة السياسية، نشطاء الساحة العامة وغالبية قيادات وممثلي 'القوى الشعبية'، بضرورة الإبتعاد عن الأحكام المسبقة وترك ما كان يحول دون تكامل طاقاتهم وتحصين ساحاتهم من خلافات ثانوية وحسابات هامشية... وهذه فرصة "نادرة" على المخلصين من "أصحاب العقول" أن يحسنوا استثمارها، ولن يكون أمامنا الكثير من الوقت[109]. ومن مسؤولية العقلاء من شرفاء تلك القيادات والزعامات الشعبية والإجتماعية المساهمة في تحديد وتقديم 'الخطاب الجامع' وما نعمل على "بلورته" من 'رؤية واقعية مشتركة'، والتعاون على تشكيل ما يحتاجه 'ترتيب البيوت الداخلية' من نخبة مميزة، أو "قوة" فكرية وعملية، قادرة على 'كسب ثقة العامة من الناس'، وذات "هيبة" عند كل أصحاب الشأن والمسؤولية والقرار.

إن أمر التعامل مع الخلاف والتواصل مع الإختلاف وفي هذا الزمن الذي لا يثق فيه أحد بأحد، إنما يحتاج إلى من لا يمكن لإحد اتهامه بمزلة، من نخبة مميَّزة و"قدوة" قادرة على التخلي أو التعالي عن الكثير من متطلبات ومستلزمات العيش والحياة[110]. وإن من أول مهام تلك 'الفئة القليلة' البحث والتنقيب عن كل الطاقات الفكرية-الأخلاقية ممن يستطيع التضحية بشيء من وقته من أجل المساهمة في إنشاء ما تحتاجه المبادرة من 'لجان' متخصصة و"منسجمة" في ظل رؤية واضحة ومتكاملة[111]، تحسن صياغة الخطابات واللغات الملائمة لمختلف العقليات والخلفيات، وتجيد تقدير الخصوصيات، وتمسك برفعتها وتواضعها بخيوط المشاعر والأحاسيس التي تتفاعل وتغضب بها ولها عامة الناس.

---

106 عُد إلى ما انتهينا به في الحلقة السابقة تحت عنوان 'المأزق والإختراق الأخير'، المقطع الأول من الصفحة 46.

107 وحتى لا يُسيء أحد فهم أو تفسير المقصود من كلمة الأقلية هنا، يُرجى مراجعة المقطع الأول من الصفحة 40.

108 الجوع الذي أتكلم عنه هنا لا يقتصر على ما تحتمله الأزمة الإقتصادية القادمة من تبعات على الأمن والإستقرار السياسي والإجتماعي، إنما يشمل أيضا ما يخلفه اليأس أو 'الخواء الروحي' من "جوع نفسي" أكثر خطورة وتدميرا.

109 بالإشارة إلى ما يعيشه اليوم أو يمرّ فيه الآن 'المجتمع الدولي' من مرحلة تضطر فيها القوى أو 'القوة المهيمنة' إلى اتباع ما يسمى بسياسة 'القوة الناعمة' واللتي، وكما يبدو، ستنتهي مع نهاية فترة ولاية الرئيس الأميركي الحالي.

110 ولعل في ذلك ما يكفي لنثبت لكل من يريد التأكد من تجرّد وإخلاص مسلك وأهداف تلك 'الفئة القليلة'، ولنؤكد، مرة بعد أخرى، ونشدد على عامل الاستقلالية عن كل القوى والسلطات السياسية والمالية، المحلية والإقليمية والدولية.

111 ومن أجل ذلك كان كل ما سبق في هذا الكتاب من شرح وتوضيح لتلك النقاط أو 'المراحل المفصلية' لما شهدناه ونشهده من 'حدث سياسي'، بدءاً من جذور الخلل (المتمثل بما أفرزته وفرضته 'الواقعية السياسية' من 'أمر واقع')، وصولا إلى سيطرة أصحاب 'عقلية القوة الصّلبة' على مراكز صناعة قرار القوة المهيمنة، وما يعنيه وقوف هؤلاء وراء 'سياسة القوة الناعمة' من استحالة الوصول إلى أية حلول عملية لأي من الأزمات العالمية القائمة والمتفاقمة، وتأكيدا على أن الهدف من وراء التهدئة الحالية إنما هو من أجل ترتيب الساحات الداخلية استعدادا للمواجهة القادمة.

خطوات رئيسية و’خطوط عريضة‘

إن ما سأكتفي بكتابته هنا، وكما ذكرت في مطلع هذه الحلقة، أنما هو تحديد للمراحل الرئيسية من مبادرة ’تجسير الهوة‘ التي نعمل على تنفيذها الآن طبقا لأولويات خطواتها العملية ومع المعنيين من قيادات ’القوى الشعبية‘ والطاقات الفكرية والعملية "الكامنة"؛ وعسى أن يثق ويطمئن بها ولها، كل ممن يقدر على المساهمة في تسريع عملية ترجمتها على أرض الواقع، وممن تعج الساحات بهم من مُحبَطين و"غلابة" مغلوب على أمرها، ولعلنا نتواصل من خلالها بمن لم يتثن لنا الوصول إليه ممن يمتلك الحكمة و’الشفافية‘ المطلوبة من كل من ينتمي، أو يريد الإنتماء، إلى العمل الذي نقوم به.

إن ما نقوم به الآن من عمل أو ’تحرّك مرحلي‘، إنما نبتغي من ورائه تحقيق ما يستلزمه تحصين الساحات الداخلية (إنطلاقا من مبادرة ’تجسير الهوة‘) من لجنة[112]، أو ’لجان متخصصة‘، من عقلاء وحكماء الجماعة أو المجتمع الذي نتحرك فيه ومن أجله[113]، ومن كل من "المستقلين" وممن ينتمي سلفا إلى مختلف المشارب والفئات الموجود والحاضرة على الساحة، وممن تتوفر فيهم مستلزمات نجاح المهمة الموكولة إليهم[114]... لعلنا نلخص ذلك بالعناوين أو المراحل الرئيسية التالية:

- طرح وشرح خلفية و"مبررات" مبادرة ’تجسير الهوة‘، و"تسويقها" بين جميع فعاليات المنطقة، بدءا من ساحة دائرة الإنطلاق، عن طريق تقديم ’رؤية‘ صحيحة وواضحة لـ ’الحدث السياسي‘ والإجتماعي القائم (مختصر هادف لدراسة أكاديمية دقيقة للنظم أو النظام السياسي السائد، ولما يجري من "أحداث مفصلية" وما يربط بينها على كل الأصعدة المحلية والإقليمية والدولية)، ومن قبل خبراء متخصصين ومدركين (عن طريق الممارسة والإحتكاك العملي) لما آلت إليه السياسة الدولية، ولـ’عملية إتخاذ القرارات‘ و"عقلية" العامل والمؤسسة المسيطرة حاليا على مراكز صناعة قرار القوة المهيمنة المعاصرة، وفي العالم الغربي.

- مناقشة عناوين وتفاصيل هذه ’الدراسة‘ مع كل من أمكن الإتصال به من أهل الإختصاص من مختلف القوى والمشارب السياسية والفكرية، ومع المعنيين في المؤسسات الرسمية، من أجل الوصول إلى ما نحتاجه من ’رؤية مشتركة‘ نعمل على أساسها في تحقيق ما نريد الوصول إليه.

---

112 كلمة ’لجنة‘ هي كلمة يونانية أو لاتينية الأصل. وما تعنيه بالمفهوم السياسي الدولي هو هيئة مؤلَّفة من أعضاء يتراوح عددهم حسب أهمية المشروع أو المهمة، و"يُنتقون" أو ينتخَبون ممن تتوافر لديهم الكفاءة والخبرة العملية، بالإضافة إلى النزاهة والحيادية؛ مع مراعاة تمثيل الأطراف والكتل المعنية، و’التوزيع الجغرافي‘ إذا اقتضى الأمر؛ مهمتهم دراسة موضوع أو أمور خلافية معيَّنة يعملون على كشف ’جذورها‘ وتقديم الإقتراحات والحلول العملية لها.

113 إذ أن أي ’مشروع إصلاحي‘، أو ’تصحيحي‘، لا يمكن له أن يتحقق أو يتقدم بالإتجاه الصحيح إلا إذا جاء على يد الجماعة أو المجتمع المعني نفسه؛ وبحيث يشعر الجميع بأن المشروع مشروعهم، وفكرته وأهدافه منهم ولمصلحتهم. فهؤلاء أعلم بـ ’الخصوصيات‘، وهم خير من يحسن تقدير ’مصالح‘ كل الأطراف المكونة للمجتمع الذي ينتمون إليه.

114 ولهذا السبب، يجب أن يقتصر البحث هنا عمَّن لا "عيب" ولا شائبة فيه، ممن لا يوجد لأحد عليه حق ولا دَين، وممن يُعرَف بصدقه ونزاهته وحكمته "أولا"، بالإضافة إلى الميزات الثقافية أو المكانة الإجتماعية التي قد يتمتع بها.

- الإستعانة بهذه ’الدراسة‘ أو ’الرؤية الواضحة والمشتركة‘ في عمليات التقارب والتواصل مع كل من يُرجى به خيرا وعلى صعيد كل دائرة، وفيما بين تلك "الدوائر الرئيسية"، خاصة بين ’المتدينين‘ والعِلمانيين؛ مع ما يتطلبه الأمر من تمييز بين العَلمانيين المعارضين لفكرة وجود "السلطة العُلوية المراقبة"، وما يتبع ذلك من "ضوابط" و’أخلاقيات‘، وبين العِلمانيين المؤيدين لمبدأ الفصل أو عدم الخلط بين الدين والدولة؛ من أجل الإستفادة من مواقع وتجارب من يُتهَم من هؤلاء ظلما بعدائه، ممن يعود "بُعدهم" إلى فشل المعاصرين من قيادات ’التيارات الدينية‘ في توفير الخطاب المناسب لعقلية وظروف هذه الطبقة "الفاعلة" والقادرة على تسهيل الأمور، والمساهمة في إيجاد ما نحتاجه من حلول.

- تشكيل ’نواة مُحرِّكة‘ (إنطلاقا من ’ساحة الأكثرية‘) يُمَكَّن لها[115]، لتعمل على إعادة "الحِسّ الإنساني" ليكون الأساس في تفكير الناس (كل ضمن دائرته أولا)، والحَكم والفيصل في كل ’علاقاتهم الحياتية‘، من أجل إصلاح ما عطلته العقلية المادية من "ذوق" وإنصاف وشهامة، ومن واقعية فكرية ووسطية عملية وعدالة إجتماعية. وإن أول خطوة يُنتظر من تلك النواة تحقيقها، أن تقوم بعملية مدروسة من أجل التعرف على مختلف القوى الفاعلة، لتشجيعهم على التعارف فيما بينهم أولا، ومن أجل دراسة واقع وحقيقة كل طرف دراسة دقيقة تمكنها من تحديد ما يمكن أو ما يجب احترامه في كل فئة من ’خصوصيات‘، وصولا إلى ما يمكن تحقيقه لاحقا من ’عيشة مشتركة وآمنة‘، بأقل قدر ممكن من العداوة والإعتداء، أو التطرّف والتجاوزات.

- تكثيف ’اللقاءات الخاصة‘ والثنائية مع كل القيادات و’الطاقات العملية‘ من أجل شرح وإقناع أصحاب القرار أو التأثير من هؤلاء بضرورة إعادة ’عامل الإستقرار‘[116]، عن طريق القبول بمتطلبات ومستلزمات ’التوازن والتكامل‘ بين القوى المتنوعة والمكونة ’للكيان الإجتماعي الذي نعيش فيه‘، سواء كان ذلك على صعيد الجماعة أو الكتلة الموحدة، أو على صعيد الطائفة أو الوطن.

---

115 يجب التروّي في تشكيل هذه النواة، وبطريقة دقيقة لا تُهمَّش فيها أي من القوى الحاضرة، وبما يزيل الشكوك وفرضية أن تكون النواة هذه خطوة من أجل إضافة حزب أو حركة أو مؤسسة جديدة، سواء كانت متعاونة أو منافسة. فما تعج به الساحة اليوم من "إضافات" جديدة و"مُفتعَلة" لكاف من أجل إرباك ’أصحاب النخوة‘ و’تضييع البوصلة‘. وعلى من يقدر على المشاركة أو المساهمة في هذا التحرك أن يبقى في دائرة عمله الذي يتناسب مع ميوله وخبراته. ومن يستلزم الأمر "تفرُّغه" من هؤلاء، من أجل ’المتابعة والتنسيق‘، فعلى المساهمين التعاون في تأمين المطلوب، حرصا على نزاهة واستقلالية ما على النواة التأسيس له لاحقا من ’لجان‘، من أهم وظائفها ’ضبط الساحات الداخلية‘ (ما يُفترَض أن يكون على رأس برامج أعمال المؤسسة الرسمية التنفيذية)، مما يُعَدُّ من أهم ’الخدمات الإجتماعية‘ التي على الدولة تقديمها لدافع الضرائب مقابل دفعه لتلك الضرائب (أو لـ "الرعية" مقابل قبولها بسلطة تلك الدولة)، ومما ينبغي على الدولة تأمين كل مصاريفه، وستؤمِّنه، عندما يصبح للدولة في هذه الأعمال الأساسية والحساسة دور.

116 عُد إلى ما بدأنا الحديث به في هذه الحلقة تحت عنوان ’أسباب ومقدمات‘، نهاية المقطع الأول من الصفحة 48.

- تشكيل ’لجان محلية متخصصة‘ (أو ’لوبي‘ محلي)، دفاعا عن "القيم" والروابط الإنسانية والأخلاقية العامة، لتعمل لاحقا ضمن ’استراتيجية‘ محسوبة ومنطقية متماسكة من أجل إزالة أو معالجة أسباب ’التطرّف‘، عن طريق تقييم كل العوامل والمسببات، وصولا إلى ’جذور الخلل‘، وبـ ’التقارب‘ والتقريب بين القوى الرئيسية والممثلة لمختلف الفئات، تهيئة للأرضية اللازمة من أجل قيام ما نهدف إليه من ’وحدة معنوية‘ مبنية على أساس فهم وتقدير سُنـَّة التنوع، والحكمة في تفاضل الخلق، والإعتراف بواقع الإختلاف بين البشر.

- العمل على ’تجسير الهوة‘ بين مواقع الإختلاف وعلى صعيد كل دائرة، وفيما بين تلك الدوائر الفاعلة على صعيد المنطقة أو الإقليم أو الوطن، وفيما بين الأوطان بعد ذلك على صعيد ’الأمة‘، من أجل "الإستفادة" من كل ’القدرات الصادقة‘، و’لتتكامل به الخبرات والطاقات الفاعلة‘ في عملية ’تحصين الساحات الداخلية‘، ’استعدادا للمرحلة القادمة‘، سواء كان عنوان تلك المرحلة ’معركة فاصلة‘ أو ’صراع حضارات‘ أو ’تقاسم مصالح‘ أو ’تسيير شؤون الناس‘ بين جميع شعوب الأرض.

الحلقة السابعة

الحقيقة: بين المرتهنين لمصالحهم الخاصة، وبين المخلِصين لمصلحة الوطن والمواطنين

إن من أهم القضايا الخلافية بين علماء الفلسفة السياسية، رأي هؤلاء بأصل 'الإنسان البشري'، إن كان الخير و'النزعة الإيجابية' من طبيعة هذا الإنسان الذي لا يحتاج عادة إلا إلى 'القدوة الحسنة' ليلتزم بأولويات المصلحة العامة فلا ينحرف تحت تأثير المغريات أو الضرورات... أم أن الأصل فيه ميله إلى الفوضى و'حب الذات'، مما يبيح ويبرر استعمال القوة والقهر في عملية تنظيمه وإصلاحه و"إلزامه" بما فيه خير الجماعة أو المجتمع الذي ينتمي إليه. ومما ساعد على فرض الفرضية الثانية، إنما يعود إلى حالة التخاذل واللامبالاة عند أصحاب العقول، وإلى "واقع" الضياع عند عامة الناس، عندما يُترَك الأمر إلى "قضاء وقدر" أصحاب المصالح وأهل الهوى والأنا: "حفنة"، بدقة تنظيمها، قد تمكنت من فرض واقها وشروطها على عامة البشر.

إن كان يصعب علينا توجيه اللوم إلى "العامة"، إلاّ أن من يقوم ليتولى إدارة الشؤون العامة إنما يأتي "حاله" طبقا لما تكون عليه عامة الناس... وإن من يقدر على الإدارة والقيادة إنما هم قلة، نخبة من "الأذكياء" ومن أصحاب البصيرة، منهم الخبيث (النخبة العاطلة) وفيهم الكثير من الطيّبين. ولكن الكثرة "هباء" في ظل انعدام الحوافز (**تكامل هذا 'الكثير الطيِّب'**، و"تقدير" الناس لهم[117])، و"الطبل" يجمع عادة وبغض النظر عمَّن 'يدق الطبل'.

لقد تعمَّدت افتتاح رسالتي هذه (الحلقة الأولى من الكتاب) بالحديث عن 'الواقعية السياسية'[118]، وعن الأسباب والأساليب التي فُرضَت فيها النظرية، مسلطا الأضواء على "حقيقة" ما نعيشه اليوم من 'أمر واقع'، وأن ما هي عليه عامة الناس من يأس وتخاذل و'نفاق' وأنا وخواء روحي إنما كان (جُله إن لم يكن كله) نتيجة أجواء فكرية مفتعلة، وبيئة إجتماعية طارئة، **"قابلة" للعلاج والتغيير.** فالإنسان كائن إجتماعي لا يستطيع العيش والإستمرارية بنفسه... ولقد تطورت وتقدمت عبر الزمن أساليب الحياة وقوانين العلاقات العامة عند الجماعة البشرية، وبغض النظر عما يحكم أفعال الناس في احتياجاتهم اليومية إلى بعضهم البعض، إلا أن "المبادئ" كانت دائما المحرّك الذي يقرّر الإتجاه الذي على أساسه تتحكم "المصالح" بأفعال الناس[119]... وكما أن في جسد الإنسان 'قوى' متضاربة حيوانية وإنسانية[120]، فللمصالح أيضا دوافع مادية محكومة بمبادئ شخصية أنانية وفكرية أخلاقية... وفي اللحظة التي يُساء فيها إلى 'التوازن' بين تلك 'القوى المترابطة'، يولد التطرُّف ويحدث الخلل.

---

117 من الطبيعي أن تخف حماسة المتحمسين لـ "العطاء" ولحفظ المصلحة العامة من أهل الخير وأصحاب الطاقات (والعاملون منهم قِلة، غالبا ما تجد نفسها مضطرة للتحرك في ظل ما يضعه أصحاب المصالح أمامها من "عوائق") عندما لا يُظهر الناس من حول تلك القلة تقديرهم واحترامهم لما تقوم به من تضحيات لا تريد بها 'أجرا ولا شكورا'.

118 هذا وبالإضافة إلى كون المسألة جزءا أساسيا من 'جذور الخلل' القائم في 'النظام العالمي' الحالي.

119 عد إلى الحلقة الثانية من هذا الكتاب، المقطع الأول تحت عنوان 'بين الواقعية والمثالية'، الصفحة 16.

120 راجع 'الحاشية' رقم Footnote 104 من الحلقة السابقة، الصفحة 48.

موقع وموقف أصحاب المصالح من الخلل الدولي

إن ما نشهده اليوم من انتشار للأنا وللنزعة الفردية، وفي كل ساحة وزاوية خاصة ومحلية[121]، وعلى صعيد العائلة وأبناء البيت الواحد، إنما يعود إلى ما أفرزته وفرضته ‘الواقعية‘ من واقع جديد على الساحة الدولية، وفي وجه أخلاقياتٍ ‘مثاليةٍ‘ فشل أصحابها في فهم واستيعاب تغيّرات الزمن، وفي التفريق بين ‘ما هو محكوم بالفرضيات والأماني وما هو صحيح بحكم المنطق والعقلانية‘[122]... ‘التجديد‘ Innovation أمر مطلوب وإيجابي عندما تتولى إدارته "النخبة المخلِصة والمخلَصة"، وبـ ‘رؤى واضحة‘، بعيدا عن ‘الشعارات المبهمة‘ Abstract Slogans، وعن ضغط الشارع... ولقد كان لـ‘عصر النهضة‘ ما كان له من الإنجازات التي لا يمكن حصرها، ولا يمكن لأحد إنكارها. ولكن المشكلة (أو بداية الخلل) كانت (وكما هي عليه الآن) في استرخاء واطمئنان أصحاب السلطة، وفي ما تسبب به استهتار هؤلاء يومئذ من انطلاقة، أو ‘رَدَّة فعل‘ متسرعة ومتهوّرة لقوى التغيير، في ظل الفوضى واليأس و"انقطاع الأمل"... عندما يستسلم العقل للشك، وعندما تقع القوة والطاقات في يد الجهل رهينة لمتطلبات ما أُثقِلت به النفس البشرية من طمع وشهوات[123].

وتعود جذور هذا "الخلل العالمي" إلى حقبة زمنية رفضت فيها السلطات الحاكمة آنذاك الإعتراف بـ "الحقيقة"، وبما أحدثته ‘الأيام‘ والوقائع من واقع، ومن مستجدات إجتماعية وسياسية **كان بالإمكان استيعابها**... ولينقلب ‘الرعاع‘ بعد ذلك على "الرعاة"، وعلى الضوابط وكل المحاذير، وعلى القيم والموازين والمبادئ، وما تناقلته الأجيال من خبرات وتجارب و‘تراكمات معرفية‘... حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم من ضياع فكري وفساد أخلاقي، ومن تطرّف عملي "ممنهج" وعلى كل المستويات الإجتماعية والسياسية بين البشر.

إن ما توشك أن تقع به بعض أنظمة التسلط والإحتكار (وما يدور في فلكها من دوائر "رسمية" وأجهزة و"توابع" لمؤسسة الدولة) من تبعات انقطاع وسائل الهيمنة لم يعد الآن على سلم الأولويات، رغم هول ما ستدفعه "رؤوس" تلك الأنظمة من ثمن[124]. وإن ما فرضه ‘استكبار‘ وإستهتار تلك القلة على رأس لائحة المخاطر، إنما يتمثل بما تم استبدال النظم ‘الثيوقراطية‘ به من "مالقراطية" جشعة؛ وفي الوقت الذي كان ما زال فيه يومها ما يمكن به "كبت" انفعال المحروم والمظلوم والمقهور[125]، ففي ظل هذا الواقع الجديد للنظام العالمي افتـُقِدَ الأمل، وعوامل الرضى والإكتفاء أساس الإستقرار، وكل الأعراف والأخلاقيات القادرة على ضبط أو "استيعاب" ردة فعل ‘جموع الجائعين‘[126].

---

[121] حتى أن ‘الفردانية‘ Individualism قد وصلت في هذه الأيام إلى قلب ساحات عمل مؤسسات وتجمعات، شعارها ومن أسمى أهدافها التضحية من أجل المصلحة العامة، والأصل في إنشائها قناعة أعضائها بالعمل الجماعي (كالأحزاب العقائدية والجماعات الدينية والمؤسسات الخيرية على صعيد المثال).

[122] أو التمييز الدقيق بين ما يتمناه المرء وبين ما يمكن تحقيقه في ظل ما يفرضه الزمان والمكان من ‘وضع راهن‘.

[123] أي عندما يُقدِّم "أصحاب العقول" ما يرافق الشك من إحتمالات سلبية على ما يحتمله اليقين من حكمة وعقلانية، وعندما تغلب أو تـُقدَّم الحسابات "الحيوانية" على ما يقتضيه المنطق والواقع في الحكم عند أصحاب السلطة والقرار.

[124] ولعل في ما جرى في زمن الثورة الفرنسية (ما قبل الثورة وأثناءها وفيما بعدها) خير مثال على الحالة القائمة، وعلى ما يمكن أن تؤول إليه الأمور.

[125] مسألة الإعتقاد أو الإيمان بوجود ‘الخالق المراقب‘، وما يتبع ذلك من ‘حساب وأجر‘ يعوِّل عليه ‘قليلو الحظ‘ والمسلوبة حقوقهم في لجم رغبة الإنتقام (عند المقدرة)، وفي التعويض عن النقص والحرمان، و"الرضى بالمقسوم".

[126] راجع ‘الحاشية‘ رقم Footnote 108 من الحلقة السابقة، الصفحة 49.

إن ما أريد قوله والتأكيد عليه من وراء هذه المقدمة، ما أجمع عليه "المنطق"، وفي كل مكان، من استحالة معالجة الخلل، دون الرجوع إلى أسبابه "المتجذرة"، للنظر فيها أولا وبطريقة واقعية، ومن قِبَل نخبة عاقلة متخصصة ومستقلة... وأن للخلل أسباب يمكن التماسها، والتعرّف على حقيقتها، وأن الفرصة ما زالت قائمة أمامنا، إن كان لدى 'أصحاب الشأن' الإرادة، أو 'نيّة صادقة' لعلاجها... إلا أن حقيقة هؤلاء المتسلطين على 'مراكز صناعة' القرار الدولي، وفي قلب قرار 'القوة المهيمنة'، أنهم لا يريدون للخلل علاجا... ولا للنهب والإبتزاز نهاية... أو لوسائل الهيمنة والإحتكار تعديلا... حفنة جشعة ومهووسة من أصحاب الأموال الطائلة، و'الشركات العملاقة'، ومنابر "الإعلام الهدام"؛ من "شروط" بقائها واستمرارها، أن تبقى الشعوب من حولها (وكل أمم الأرض) على ما هي عليه من "السلبية" والرجعية، والإنحراف والإنحلال، و"الجوع" والضياع.

لطالما اعتقدت أن في الغرب المتقدِّم 'حضارة' يُعوَّل عليها، وشيئا من الحرية و'الديمقراطية' التي يمكن للمنطق في ظلها أن يقول كلمته... ولكن، وبالرغم مما وصلت إليه قوى الإحتكار من قوة، إلا أن في هذا 'الغرب'، وفي كل العالم، الكثير من المنصِفين العقلاء، ومن المخلِصين[127] الشرفاء، ممن يجدر بـ "أصحاب الحق" و"أنصار الحقيقة" العمل على تكاملهم، والتنسيق معهم وفيما بينهم... وإن من أهم ما أردت التقديم له من وراء هذه الرسالة، أن من قام ويقوم في تثبيت هذا الخلل الدولي، إنما هم قلة منظمة[128] لا يمكن مواجهتها، ولن نقدر على محاسبتها، إلا بنخبة منظمة متكاملة مماثلة، تعيد التوازن والإتزان إلى الساحة السياسية، الفكرية والعملية، وإلى مراكز صناعة القرار الدولي[129].

لقد حاولنا جاهدين توصيل الرسالة إلى كل من أمكن الوصول إليه من عقلاء أصحاب القرار، وعلى كل المستويات[130]... إلاّ أن حال وواقع من كنا ندافع عن مصالحهم (وعن "وجودهم كبشر") من "عامة" تلك المجتمعات الغربية لم يكن ليؤيّد ما كنا نتقدّم به من مبررات وتحاليل و'خلاصات' لإحقاق "بعض الحق"، ومن أجل الإصلاح أو التغيير... وإن وقع تلك الحقيقة في نفوس 'الشرفاء' كان أكبر من كل العوائق المفروضة على ما كانت تحتاجه استمرارية العمل من دعم مادي ومعنوي.

'المرتهنون' منا، وفي ساحتنا

لقد كان لدينا الأمل، وما زال، في تنظيم جهد وكلمة أهل المنطق من أصحاب القرار العالمي (في الساحتين الأوروبية والأميركية)، ومن هنا كانت دعوة العقلاء من أصحاب القدرات في منطقتنا من أجل "تقدير" ما يمكن أن نجنيه[131] من وراء تبنّينا، أو دعمنا، لتلك المبادرة المتقدمة من تقدير... ولكن (ولنكون منصفين) ما وصلت إليه تلك الشعوب الغربية بنخبها من واقع أليم "غير مشجع"، وعلى ما يبدو، كان وراء "عدم حماسة" البعض من عقلاء أصحاب القرار في ساحاتنا الداخلية (العربية والإسلامية) من جدوى ما كنا نقوم به على صعيد 'الإئتلاف الإنساني الدولي'.

---

127 المخلصين "حقا" لبلادهم ولشعوبهم، وللمصلحة العامة على الصعيد الدولي والعالمي.
128 منظمة بظاهرها، متناحرة (أو متناقضة) من داخل صفوفها.
129 ومن هنا كانت فكرة إنشاء 'الإئتلاف الإنساني الدولي'.
130 سواء كان ذلك بين أصحاب الفكر من صناع القرار، أو مع المعنيين في المؤسسات التنفيذية، (خاصة الـ FCO).
131 كأصحاب حضارة منسيّة، أنكِرَت كل إنجازاتها. وكأنظمة محاصرة، متخلفة عن ركب التطور والتقدم الحضاري.

إن ما تمَّت مناقشته مع من كانت لديهم القدرة (أو الوقت) و"النيّة" لمعرفة تفاصيل 'الدعوة' ممن يتمثل فيهم 'عمق الأمة'، إنما كان ذلك تحت عنوان 'تحصين الساحة (أو الساحات) الداخلية'، بعيدا عما كنا "نحلم به" من "حماسة" أو "مبادرة صادقة" من قبل البعض ممن تـُعَلـَّق عليهم الآمال من تلك الأنظمة القائمة في منطقتنا، من أجل النهوض والإرتقاء إلى مستوى معالجة 'الخلل الدولي'. ولقد اقترحنا على هؤلاء أن يكون 'الإئتلاف' (وما يحمله الإئتلاف من أهداف سامية و'هَمّ دولي') 'مظلة' نتحرّك في "أمنها" لنتعاون على إعادة 'ترتيب البيوت الداخلية'، استعدادا للمرحلة القادمة... ولكن المشكلة – كما كانت وما زالت – في "عناد" البعض من تلك 'النخب المحلية'، وعلى رأسها أصحاب المصالح (من "مالقراطيَّة فوقيَّة"، وحفنة من عملاء "الإحتكار العالمي") وبعض الحاقدين ممن يدور في فلك أصحاب السلطة، وممن تم فرضُه على "رأس الهرم" من "موسوسين موسوَسين" (بعض 'المستشارين الخاصّين' برؤساء وملوك وأمراء الدول العربية والإسلامية).

لعل أمر مشاركة "أنظمتنا" المحلية والإقليمية في ما تحتاجه مواجهة المخاطر العالمية الطارئة من عمل مؤسساتي هادف ودقيق "سابق لأوانه"... إلا أن مواجهة ما تنتظره المنطقة من "كوارث" (تبعات و"مغبة" وصول المفاوضات الجارية و'مساعي السلام' "غير السليمة" إلى طريق مسدود)، سواء كان ذلك على صعيد المواجهة الحالية (غير المباشرة) بين القوى أو 'المحاور الدولية الجديدة'، أم على صعيد الصراع العربي الإسرائيلي، إنما هي مسألة مختلفة عاجلة وخطيرة لا يمكن تأخيرها؛ ولتتضاعف أهميتها، عندما نضع نصب أعيننا حقيقة وطبيعة الصراع القادم على "مواقع الهيمنة"، وعلى مصادر الثروة في ظل تخطينا لـ 'نقطة الذروة' النفطية Peak Oil (راجع الملحق رقم 3)، والذي لم يعد يفصل بيننا وبينه سوى سنوات قليلة أو أشهر معدودات.

هناك فارق شاسع بين الخصومة أو الخلاف Dispute، وبين الأزمة أو الصراع Conflict، ولكلٍّ في علم وقواعد '**تسوية الخلافات**' و'**معالجة الأزمات**' أسلوب وطريقة مختلفة للتعامل معه؛ (**Dispute**: *Legal and Political* Negotiation → Compromise → **Settlement**) مقابل (**Conflict**: *Behavioural* Analysis → Needs' Fulfilment → **Resolution**). وإن ما يجري اتباعه اليوم في غير مكانه من أساليب ووسائل لحل الخلافات في معالجة النزاعات (Problem Solving Conflict Resolution)، إنما يتم فرضه كي لا نصل إلى أي حل عملي لأي من الأزمات المزمنة القائمة، ومن قبل 'نخبة عاطلة' إحتكارية متسلطة... و"الأخطر" من ذلك، أن تتولى النخبة العاطلة هذه إدارة 'سياسة القوة الناعمة' Soft Power Politics للدولة المهيمنة، وبـ 'عقلية القوة الصلبة' Hard Power Mentality، مما يؤكد الإتجاه والسير نحو "المواجهة"... وإن أقل ما يمكن القيام به الآن، مبادرة عملية من أجل مراجعة الحسابات و'ترتيب البيوت الداخلية' (ما يتفق على أهميته وأولويته اليوم الكثيرون من عقلاء ساحاتنا الداخلية، من قيادات رسمية وشعبية، وفي كل مواقع السلطة السياسية والأمنية). إلا أن البعض ممن لا يقدر على تجاوز متطلبات نزواته، أو ما يفرضه عليه تطرّفه من حسابات عقائدية فكرية أو مادية عملية متشنجة، من غلاة ومرتزقة (ولهؤلاء وجود في كل مكان مع فارق حجم الإرتهان، لا يستطيع أن يزايد بذلك اليوم أحد على أحد)، وبالرغم من كل ذلك، هم يصرّون وعلى ما يبدو على استخفافهم بما يجري من حولهم من مستجدات، وعلى متابعة سبيل التطرّف والإحتكار؛ نخب محلية متفرّقة، على شاكلة وطريق تلك النخبة العاطلة على الساحة الدولية؛ وإلى أن تتم إزاحتهم من قبل الأحرار، أو 'اقتلاعهم' من قبل 'جموع الجائعين'.

...

ملاحظة

لقد تم حذف المقطع الأخير من هذه الحلقة، لما استحسنته وارتأيته من مصلحة في عدم الغوص أو الإفصاح عن تفاصيل بعض "الشبهات" والمزلات المتعلقة بحقيقة ومواقف من تُعَلق عليهم الآمال في قيادة مبادرة تجسير الهوة وترتيب البيوت الداخلية من فعاليات تلك القوى الشعبية "الحاضرة"، وعلى رأسها قيادة أو قيادات الحركة الإسلامية، ولما بدا من بعض تلك القيادات مؤخرا من مواقف، ومن نوايا وخطوات عملية إيجابية وسليمة.

كلمة أخيرة،
ونصيحة خالصة لمن يهمه الأمر

على صعيد الدولة، والأنظمة القائمة

الكل يعاني من الضياع وانعدام الأمن والطمأنينة ومن 'الخوف من المجهول' في هذه الأيام، والكثيرون من أصحاب العقول غارقون في النفاق أو الإحباط، وفي الوقت الذي ما زال يراهن فيه المرتهنون لقسوة قلوبهم وحيوانية نفوسهم على قتل ضمير البشر وفقدان الأمل، تلوح في نهاية النفق بشائر الفرج بقرب "الحساب"... فالإعتداءات المتكررة على 'الطبيعة' (طبيعة الإنسان والجماعة، وكل نظام حي على وجه الأرض) قد تجاوزت الآن 'حدود المعقول' وكل 'الخطوط الحمراء'... و'الغضب القادم'، إن لم يكن بالإمكان استيعاب مقدماته، لن تقتصر تبعاته على هؤلاء 'المستكبرين' من تلك النخب المستهترة، دون من يستخف بهم اليوم هؤلاء من "متخاذلين" وشعوب ضائعة جائعة.

للظالم (كل ظالم لنفسه، ومن كل من الطغاة و"العبيد") ألاّ يلقي للتحذير بالا، و"الأيام بيننا"... ولقد حرصت على توضيح ما بنيت وأبني عليه هنا خلاصة قولي، وبطريقة علمية واقعية ومتجرّدة، بعيدا عن الأحلام و'الأماني'... وإن ما يمكن لنا استدراك الأمر به، إنما فيه خلاص لـ "المخطئين"، ونجاة للمعتدين من نقمة الجائع والمحروم، وغضب المظلوم والمقهور، ومن كثير من المحاسبات... ومن مصلحتنا ومصلحة "قوة بنائنا" و"بقائنا"، ومن مصلحة الأرض والسماء التي نعيش في كنفها، ألاّ يكون 'العلاج'، وألاّ تكون الحلول هذه، على حساب أي من مكونات شعوب وكيانات منطقتنا... وعلى من يصِرّ منا في النهاية على متابعة سبيل الإستغلال والتطرف أن يتحمل تبعات "عناده" غدا.

إن ما تكلمت عنه في هذه الرسالة، وأتخوف منه، من دور "مشبوه" للكثير من المؤسسات الدولية و"الأممية"، لا أعني بذلك الإستسلام أو عدم الفائدة من التعامل مع ما تمثله تلك المؤسسات من مواقع و'أمر واقع'... وأن ما وصلت إليه تلك 'النخبة العاطلة' والمحتكرة لعملية صناعة القرار في كل من الساحتين الغربية والدولية؛ لا للدعاية ولا للتضخيم من شأنها، أو التهويل من "جبروتها"؛ إنما للتأكيد والإصرار على ضرورة العمل على ما لا يمكن محاسبتها إلا به من نخبة منظمة ومماثلة، يتعاون على تشكيلها العرب و'العجم' من أهل المنطقة، ليساهم فيها كل العقلاء والحكماء ومن خلفهم ما نمتلكه (أو تمتلكه الأمة) من طاقات وموارد متوفرة، وفي تحالفات و"محاور" جديدة و"مناسبة".

إن أقل ما يتوقعه "الإنسان" فينا من تلك "الزعامات"، ومن كل القيادات السياسية و'الرسمية'، وفي ظل كل هذه التغيرات الدولية والعالمية، "قليلا" من الإمتيازات، وتنازلا عن بعض المكتسبات، بعيدا عن الإحتكار والإحتقار، وعن الفوقية وعن تلك النظرة الإستعلائية، وليتوقف "الغافلون" منهم، ولو لمرة واحدة، عن "استغباء" الناس... وعلى العرب وغير العرب منا أن يكونوا أكثر واقعية، ليغتنموا الفرصة الآن (ولعلها تكون الأخيرة)، وأن يتوقف البعض منهم عن المناورة و"الإستهبال"، وليباشروا جميعا، أو من ما زال فيه نخوة منهم، لاستدراك ما يستلزمه الواقع الجديد من تحولات على صعيد "أمن الأمة"، ومن وحدة الدولة إلى ما تشهده الساحة الدولية الآن من تجمعات وإتحادات.

على صعيد المواطن، والقوى الشعبية

لشعوب المنطقة (أفرادا وجماعات) أن تختار بين الحرية الحقيقية وما تمتاز به من "إنسانية"، وبين ما يُقدِّمُه لها 'العالم الحر' من تحرُّر حيواني تُحكِم في ظله قوى الإحتكار والإستغلال قبضتها على الأمل في تلك الأجيال الصاعدة، كي تصبح "حجّة"، و"مادة للإبتزاز"، في يد القريب والبعيد من أعداء أصحاب الأرض، يُسكِت بها أصحاب السلطة والتسلط كل من "يسوّل" له عقله وضميره الدفاع عن أصحاب الحق، وعن حق ووجود الناس في تلك المنطقة كبشر على وجه هذه الأرض... وعلى الناس، كل الناس، أن تعلم أن ما يمتلكه "المتحرِّرون" من وسائل إتصال في توصيل رسالتهم (التلفاز/الإنترنت/الأجهزة الخليوية وغيرها)، إنما يحتاج إلى الكثير من الوعي والجدية والتضحيات.

ولوسائل الإعلام و'توجيه الرأي العام' أهمية خاصة في هذه "المعركة"، وفي عملية التحضير للمواجهة أو 'الحرب القادمة'. وعلى أصحاب تمويل وإدارة تلك المؤسسات تقع المسؤولية الكبرى... وليعلم أصحاب الكيد منهم أن في الساحة من يفوقهم مكرا، وممن يحصي عليهم اليوم ما قد يرتكبه 'إعلامهم الحر' في ظل "حريتهم" (الساخرة، والعدائية المتآمرة)، من هدم للقيم ولمقومات البقاء، ومن "جرائم" ضد الإنسان، وضد "الإنسانية"... وإن ما يقوم به البعض من تلك 'القوى المالقراطية' من استغلال وتحريض مستمر للغرائز و"للنفوس الحيوانية"... إن لم يكن للدولة الآن دور في لجمه، فما يتمتع به هؤلاء اليوم من "حصانة" قريبا نهايته، ولن تغني عنهم حصونهم من يوم الحساب شيئا.

من الصعب، ومن غير المتوقع، أن تدرك العامة خطورة ما نتكلم عنه هنا، أو أن توافق عليه. وفي الوقت الذي يمكن لنا تقبل صعوبة متابعة الأمر بما يمكن لنا القيام به الآن على الساحة الدولية؛ وإن كان من المعقول تفهّم عدم حماسة بعض أصحاب السلطة للمبادرة والمباشرة في معالجة الخلل؛ إلاّ أن على أصحاب العقول من شرفاء 'القوى الشعبية'، وعلى رأسهم قيادات 'الحركة الإسلامية' (صاحبة الإمتدادات الفكرية والعملية، البشرية والجغرافية)، مسؤوليات جسام لا يمكن لهم تجاهلها. وفي اللحظة التي يتنازل فيها هؤلاء عن أخلاقياتهم، ليتبعوا سبيل من اسقطهم سوء الخلق من قبلهم، عندها يضيع الأمل، وكل الإنجازات، ولنعود في جاهليتنا ثانية، أو نغرق جميعا في ظلمات المجهول.

هذه النسخة المنشورة هنا لا تشمل ملحقات الرسالة